مجموعة اقاصيص

الدم ومعركة المصير

عبد الحميد التحافي

الدم ..
ومعركة المصير

مجموعة اقاصيص

بقلم
عبد الحميد عبد المجيد التحافي
موصل

طبعت في مطبعة ام الربيعين

OFFSITE
PJ
7864
.A356
D16
1960z

الاهداء :

الى النور الذي ومض في افكاري . .

وشع في اعماقي . .

وبعث الحياة جديدة في وجودي . .

فأدركت واقعي كعربي له اهدافه وامانيه . .

وفهمت حقيقتي كانسان له مكانته في هذا الفراغ . .

الى العقيدة التي آمنت بها فدفعتني الى غمار المعركة الدموية . .

المعركة التي يخاضها شعبي العربي الكبير . .

معركة المصير المشترك . .

عبد الحميد

اريد ان آكل

. . . ولمس (خزعـل) مرة اخرى ذلك الدرهـم الذي ظل قابعاً في زاوية من جيبه وهو يضغط عليـه بقوة كأنه يخشى عليه لئلا يفر من بين انامله . . وتابـع خطواته المثقـلة فوق الرصيف . . متأملا واجهات المحلات المليئة بشتى صنـوف المغريات من ملابس جميلة . . واحذية مريحة . . وحاجيـات ثمينة . . اذ يود الآن لو استطاع ان يجتاز ابوابهـا الزجاجيـة فيتناول منها أية حاجة تساوي قيمتها هذا الدرهم الذي يحس به ما زال يثقل جيبه ولكنه اذ تذكر كلام امه عندما سألها مرة وهي تسير الى جانبه في الشارع عن ثوب اثار اعجابه وتمناه . . ثم طلب منها ان تشتريه له . . فقد اجابته وهي تجره من ذراعه بقوة «ان هذا الثوب لم يصنـع لامثاله الفقراء . ؟! »

وتردد كثيراً قبل ان يدخـل باب المحـل ليساوم صاحبه بجرأة وشجاعة عن اية حاجة يشتريها منه بدرهمه . . إلا ان صرخة صاحب المحل عليه عندما شاهده يلطع بلسانه الزجاج . . ما زالت تشيـع في نفسه الرهبة والفزع . . وتحتم عليـه الاستمرار في طريقه . . وإلا فاليد الثقيلة ستصفع وجهـه . . لكنه وقف ثانيـة امام هـذه الواجهة الزجاجية الاخرى التي استطاع ان يلمح ورائها رجلا يلتهم طعاماً بلذة من اناء امامه . . وصافحت عينـاه تلك الابخرة الكثيفة المتصاعدة منه . . فاحس بسياط الجوع تلهب معدتـه . . وسال لعابه ليبلل شفتيه . . واراد ان يدفع الباب الزجاجـي ليجلس هو الآخر الى كرسي امام تلك المنضدة القريبة ويطلب ارخص صنف من الطعام. الا انه تذكر امه التي لو علمت بهذا لانهالت عليه ضرباً مبرحاً . . وتراجع مبتعداً . . ليواصل طريقه الى بيته . . حيث كانت هنـاك

كعادتها بانتظاره . . الا ان صورة تلك اللحمة الكبيرة التي لحمها تقاوم بين فكي ذلك الرجل فتمضغها اسنانه بنهم ما زالت تداعب مخيلته . . ويقف قليلا يتلفظ متردداً يتوجس ويبتلع كمية اخرى من لعابه ثم يلتفت ليحدق ثانية في واجهة ذلك المحل وهو يتحسس الدرهم في جيبه كأن هناك من يريد انتشاله . . ولم يلبث ان عاد مرة اخرى فان امه لا تعلم بهذا الدرهم . . ومن اين لها ان تعلم ؟ ما دام هو سوف لا يخبرها به ؟ ولن يقول لها بان رجلا كريماً اعطاه ذلك الدرهم عندما حمل بدلته الجديدة الى داره وهو يقول له « مبروك عمي . . بالعافية . . » ولن تعلم بانه دخل مطعماً وذاق فيه طعاماً لذيذاً كان يحلم به كلما مر في هذا الطريق ؟ !

وزم على شفتيه المبللتين باسنانه وهو يحاول ان يجمع اكبر كمية من اللعاب في اطراف فمه ليقذفها جملة الى جوفه . . وعادت اسنانه تلوك الفراغ . . وكاد يحس بطعم الخبز الاسمر كطعم التراب . . اذ اصبح يمقته ولم تعد نفسه تستسيغه . . فهو ما زال يملأ به معدته كل صباح مع كوب الشاي الدا كن بطعمه المر . . واخرج من جيب سرواله المتهدل قطعة بالية من القماش ملمومة من اطرافها وما كاد يغضها حتى صافحت نظراته البقية اليابسة من رغيف الخبز الاسمر الذي اعتاد تناوله كل يوم من بيته كغذاء له . . واراد ان يلوك تلك القطعة المتخلفة من غدائه لهذا اليوم . . علّه يسد بها فراغ معدته . . الا انه لم يستطع . . فقد مجتها نفسه وعافتها اسنانه . . فلا بد اذن من ان يجرب كأي انسان آخر . . ولو لمرة واحدة في حياته اي نوع آخر من الطعام غير الخبز الاسمر . . والشاي . . والتمر

واقترنت في مخيلته صورة ذلك الرجل الذي رآه يأكل بشراهة ونهم بصورة استاذه الخياط (اسطة علي) الذي يخمـــل له كل يوم نوعاً جديداً من الطعام اللذيذ فيجلس (خزعـــل) في زاوية من الدكان ليقضم خبزته ويملأ بها معدتـــه . . مختلساً النظرات بين حين و آخر محدقاً في اسطه علي واقفاً بكرشه المترهـــل وراء منضدة التفصيـــل يمضغ لقمة كبيرة من الطعـــام ويلوكها بلذة مفتعلة ليقذف بهـــا الى معدته الواسعة ثم يتبعها باخرى وما ان ينتهي من آخر لقمـــة من غدائه حتى يمسح شاربيه براحة كفـــه ثم يطلق صوته الابح بصرخة عالية وهو يشعل سكارته الملتصقة بشفتيه :

ـ تعال خزعل . . ؟ !

فينهض خزعل من مكانه فجأة وهو يلوك كسرة الخبز التي تمـــلأ فمه فيلحتها بخفة للتمر المتبقية لديه من غدائه كأنه ادرك ما تعنيه تلك الصرخة من اسطه علي فيتوجه مباشرة نحو الأواني الفارغة ليجمعها من امامه وعيناه تلاحق جوانبها عله يعثر على قطعة من اللحم متخلفة او بقايا طعام يغسل به فمه من طعم الخبز الأسمر والتمر .. إلا انه غالبـــاً ما يجدها خاوية . . فينسقها ويحملها ليعود بها خالية الى داره .. وكم ساورته نفسه ان ينزوي مرة في ركن من الطريق .. ليلتهم طعام اسطه علي كله ثم يدعي بأن الاواني قد سقطت من يده فجأة وتبدد الطعام في الطريق ..؟!! واراد في يوم ان ينفذ خطته تلك واعـــد لهـــا كل الظروف ..؟! إلا انه لم يذق من طعامه سوى لقمة واحدة ما كـــاد يضعها في فمه ويمضغها إلا واحس بنظرات المارة تراقبه كأنها تحاسبه

على خيانته .. فقذف بها من فمه نحو الأرض رغم شعوره بلذتها وسار في طريقه الى الدكان . . واخيراً احس (خزعل) كأن شيئاً ما زال يجذبه نحو الباب الزجاجي فوقف امامه قليلا إذ رأى شخصاً يرتدي بدلة بيضاء .. ينظر اليه بعطف .. كأنه ادرك تماماً ما يساور خزعل في هذه اللحظة من مشاعر .. واحس كأن في نظراته دعوة له للدخول .. فاقترب بخطوات مترددة .. وما كاد يدخل حتى زادت نظرات ذلك الشخص فيه .. ولمعت حدقتاه .. واحس بنظراته كأنها قد تحولت الى نظرات ازدراء وسخرية كاد يرتجف لها ويتراجع . . لم يلبث ان اخرج قطعة النقود الفضية من جيبه ولوح بها امامه واراد ان يقول له شيئاً .. إلا ان هذا بادره بخبث يسأله :

— ماذا تريد ..؟!!

واجابه خزعل بكلمات متقطعة تكاد تموت في اعماقه :

— اريد ..؟! اريد .. ان آكل ..؟!! اريد ان اتعشى . .

فتناول منه الدرهم المبلل بعرق يده وهو يبتسم ابتسامة ماكرة.. ثم اولاه ظهره الى باب جانبي .. وظل خزعل جامـداً في مكانه لا يدري ما ذا يفعل ؟!! ودار برأسه الصغير في ارجاء المحل متطلعاً في الصور المتناثرة على الجدران .. ثم التجأ الى اقرب كرسي امام المنضدة واستقرت عيناه على قدميه المتدليتين تتمرجحان في الفراغ ورشـقت خياشيمه رائحة الكاري والتوابل .. ممزوجة بروائح اصناف الطعام..

ثم اقبل ذلك الرجل بعد برهة يحمل طبقاً مغطى بقطعة كبيرة من الخبز الأبيض الذي لم يعتده .. ووضعه على المنضدة امامه .. وراح خزعل يحدق في الطعام ويجر انفاسه المليئة بروائحه .. وطالت نظراته

الصامتة فيه .. وكأنه بذلك كان يتلو ادعيـة واوراد .. وامتـدت يده بحيرة ..

ولا يدري لم احس بها ترتجف برغيف الخبز الأبيض؟! إذ لاحت امامه ثانية صورة امه وهي تعاتبه .. وكأنها بعتابها تريـد منـه ان يشاركها في عشائه .

لم يلبث ان اخرج قطعة القماش البالية من جيبه ثانية وفضها على المنضدة .. ثم وضع فوقها رغيف الخبز وتناول الطبق ليصب ما فيه من طعام ناشف .. ثم طوى جوانب الخبز فوقه .. ولملم اطراف قطعة القماش .. ليشد عليها بقبضة يده . . وترك مكانه مسرعاً تشيعه حفنة نظرات مستغربة لخدم المطعم .. وبضعة زبائن تربعت الدهشـة في وجوههم .. يريدون اكتناه سر هذا الطفل الذي دفع الباب الزجاجي بيده بقوة .. بينما كانت يده الأخرى تحمل شيئاً عزيزاً لديه .

وما كاد خزعل يستقر على الرصيف ويتنفـس الصعـداء حتى انطلقت قدماه تعدو مسرعة نحو البيت ليشارك امه في هذا العشـاء اللذيـذ ..

الدم..
ومعركة المصير

أؤكد بان الرعشة السارية في جسمي .. لم يكن مبعثهـا مجرد لسعات البرد للقارصة .. بل كان وجه امي الكئيب بدموعها الغزيرة .. وهي تودعني بألم شديد يعصر احشائها .. فقد لاح لي ذلك الوجـه الحبيب يطل بين الوجـوه الحزينة لأبي واختي وخالتي .. تزاحمها صفحات وجوه لبعض جيراننا ممن استيقظ في هذه الساعة المتأخرة من الليل على صوت الصخب والضجة المفتعلة .. فراحوا يشيعونني بنظرات مختلسة من وراء الابواب والنوافذ بشيء من الرهبة والفزع وهم يشاهدون تلك السيارة الكبيرة وقد ابتلعتني وحفنـة اشخاص منطلقة بنا في هذا الشارع العريض باقصى سرعتهـا .. واردت ان احتضنها لاجفف دموعها بشفاهي الذابلة .. ولأطمئنهـا عن قرب عودتي .. وفراقي الذي لن يطول مطلقاً .. لكن رأسي المثقل بشتى الأفكار لم يلبث ان اصطدم بقطعة الحديد الباردة لغلاف السيارة مما اثار لي آلاماً موجعة .. تبددت صورتها على اثرها .. وتلاشت معها تلك الوجوه الكئيبة وابتلعها الظلام الحالك الذي كاد يسود شوارع المدينة آنذاك بأسرها .. سوى ذبالات تنفثها بعض المصابيح المتناثرة .

وعدت انفخ في يدي المتشابكتين لأشيع الدفء في اوصالي المرتعشة ولأتجنب هذه الأصوات المرعبة التي تطلقها اسناني بين حين وآخر .. فتهوى طرقاتها بقسوة في جوانب رأسي كأنها ضربات معاول تريـد هدم جمجمتي وتحطيم عظامها ..

ورأيتها تعود الى غرفتي .. في بعض ساعات الليل .. لتستقبلها الكتب المبعثرة والأوراق المتناثرة في ارجائها فتخطو نحو فراشي لتعيد الغطاء الى جسمي كعادتها وتسويه لئلا يصيبني البرد بلسعاته من جراء

تزحزحه عني .. وهنا تحتضن وسادتي .. وتدفن جسمها في فراشي لتنفجر بالبكاء المرير .. لأنها لم تجدني فيه .. واجزم انها لم تعتد ذلك من قبل إذ لم يسبق لي ان فارقتها مطلقاً .

ولكن الصمت عاد يسود هذا المكان ثانية وسيطر عليه الهدوء التام بعد ان تلاشت تلك الهمهمات والهمسات التي سمعتها تستقبلني قبل لحظات كزبون حل ضيفاً عليها .. إلا ان تلك الصيحة المرعبة التي كان قد اطلقها فجأة احدهم ما زالت تصم مسامعي .. وتشيع في نفسي الفزع والخوف . . فقد كنت الامس الجدار في الظلام باحثاً بين هذه الكتل البشرية المكدسة عن فراغ بينها يضمني فيه . . إذ زلت قدمي وعثرت بساقه الممدة عفواً . . فراح يكيل لي سيلا من الشتائم القاسية ويرشقني بوابل منها دون هوادة وجلست متربعاً في هذا الفراغ الضيق .. افترش فيه الأرض المبللة وقد تهدل رأسي المليء بالروائح النتنة المنبعثة من جنبات هذا المكان .. تمازجها الرطوبة العفنة .. فأسندته على راحة كفي .. وتركت العنان لأفكاري تجتر تلك اللحظات المرعبة التي استيقظت فيها على صوت الضجيج وصخب النقاش الحاد الذي كاد يتطور الى عراك بين ابي وهؤلاء المدججين بالبنادق المتأهبة لكل طارىء وقد طوق بعضهم فراشي . . وعيونهم زائغة تلمح محدقة في وجهي بشراهة وقسوة .. فنهضت فزعاً ارتجف .. وتركت فراشي مستطلعاً حقيقة الأمر .. فاذا بأحدهم يتقدم مني ليمسك ذراعي ورأيته يشد لي يدي قيداً حديداً . . وكدت اسمعه يسأل زميله :

ـ أهذا هو ؟! انه طفل . . ؟!!

وقاطعه آخر بسخرية . .

— طفل ؟ ! ! انه مجرم . . قذر . . ؟ ! كان من قادة المظاهرة ، لقد رأيته بعيني . . وهو الآن يحرض على الاضراب . . ؟ ! !

وسرت بينهم اتابع خطواتي المتعثرة . . و كان اربعة منهم يحيطون بي مصوبين افواه بنادقهم الى جسمي الهزيل . . وسمعت صوت امي فالتفت لاجدها تلحق بي متوسلة اليهم ان يتركوني لارتدي معطفي الذي حملته لي بيديها و ألقته على كتفي . . لكنها اجهشت بالبكاء فجأة . . وولولت بعويل صارخ مزق صمت الليل عندما لمحت القيد الحديدي يطوق معصمي .. فتركتها الدموع مبتعداً عنها .. وتلاشى عن اذني صوت نحيبها الذي لم يترك سوى الصدى يعبث باوتار مسامعي .. عازفاً لحناً جنائزياً للعطف والحنان .. وانا احشر مرغماً الى جوف تلك السيارة الكبيرة التي كانت متأهبة لتنطلق بي وهؤلاء الى هذا المكان المعفن .. بين اناس لا اعرفهم .. من مجرمين .. بينهم اللصوص والقتلة .. وبينهم الابرياء .

وصافحت عيني سيكارة مشتعلة .. لمع بصيصها في الظلام وتمنيتها لارتشف انفاسها قليلا .. فزحفت مقترباً من مصدرها الذي لم يكن بعيداً عني وبادرت صاحبها هامساً بصوت اجش اكاد اسمعه انا فقط .

— اهي سيكارة .. هل .. تسمح لي بسيكارة واحدة ..؟!

لم يبد عليه اول الامر انه سمع صوتي او ادرك غايتي .. اذ لم يجبني بشيء .. ولم يحرك ساكناً .. وترددت قبل ان اعرض عليه شراءها باي ثمن يشاء .. فقد ساورتني افكار وهواجس .. قد لا يملك غيرها

او قد يكون هو بالذات صاحب الشتائم التي اطلقها علي قبل لحظات .. ولكنني لم البث ان وجـدت يده تتحسس مواضع جسمي متلمسة يدي لتقدم لي سيكارة .. تناولتها منه شاكراً فضله ثم اشعل عود ثقاب واقترب مني يقدمه بيده . . لم اتبين وجهه فقد كنت منهمكاً في لفافة التبغ التي حظيت بها في هذه اللحظة .. وفجأة وجدته يصرخ بدهشة باسمي وبصوت ابح كأنه منبعثاً من الأعماق :

ـ هشام ..؟!! هشام انت هنا .؟!!

ورفعت رأسي محدقاً في هذا الشخص الذي استطاع ان يعرفني فلم اجد الضياء الكافي لرؤويته .. ولم استطع معرفته من صوته المكبوت .. لم يلبث ان طوقني وراح يقبلني بفرح شديد مستدركاً :

ـ انا سهيل . . ؟ !

واشتد ساعدي يضغط على جسمه بقوة وعانقته انا الآخر بشوق ولهفة . . وراح يسألني عن اخبار بورت سعيد الجديدة . . ونتيجة العدوان الغادر على القاهرة . . وتذكرت بان سهيل كان قد سبقني منذ ثلاثة ايام الى هنا اذ ان القبض عليه بعد التظاهرة التي نظمها طلاب مدرستنا تأييداً للشعب العربي في مصر الثائرة . .

واخبرته عن كل شيء .. واعلمته بان الطلاب قد قرروا بالاجماع اعلان الاضراب والاعتصام في المدرسة حتى تجاب مطالبهم في تأييد الشعب العربي البطل في مصرنا الباسلة . . واطلاق سراح من القي القبض عليهم بعد تلك التظاهرة الرائعة . . وترددت قبل ان اخبره عن صديقه (عدنان) . . فقد بكى طويلا عندما اخبرته بانه استشهد في تلك المظاهرة . . وبكيت معه . .

وعاد يبادرني بهمسات تملأوها للغصة .

ـ وهل استسلم الشعب في مصر العربية . . ؟ ! !

واجهته بثقة لم اعهدها في نفسي . .

ـ كلا يا سهيـــل . . ! ان الشعب العربي ما زال يتلقـــى قنابل الاعداء بصبر ثابت . . وايمـــان راسخ . . ويقاتل بشجاعـــة فائقة وعزيمة جبارة . .

وصمت قليلا لاتابع انفاسي . . ثم واصلت حديـــثي معه بعد ان وجدت غيره من يود الاستماع . . وتذكرت حادث الانزال الاول على بور ســـعيد الباسلـــة . . وابادة كافـــة افراده من قبـــل ابناء بور سعيد الابطال . .

ـ حتى الاطفـــال يا سهيـل . . وللنساء . . وللشيوخ وصلتنـــا اخبارهم تقول بانهم حملوا للبنادق ليساهموا في معركة الشرف وليقفوا في معركة الحرية . . ليس من اجلهم او من اجل مصرهم فحسب. انما من اجل حريتنا جميعاً . . من اجل وطننا العربي الكبير . .

وصمت سهيـل . . وطال صمتـــه . . فتمثلته في الظـــلام بوجهه الاسمر يطبق عينيه على دمعات انحدرت من بين اجفانه و كأنني سمعته ينفجر بصوت تخنقه نبرات الالم . .

ـ نعم هي معركة المصير المشترك . .

() () ()

وفي الصباح جاء دوري الى غرفة التحقيق التي حدثني عنها ليلة امس صديقي سهيـل وعن الاساليب الوحشية القذرة في التعذيب . . وكنت اجر خطاي المتسمرة في الارض بين ثلاثة من افراد الشرطة

يشدون بقوة على ذراعي . . لئلا افلت منهم ثم ادخلوني غرفة مؤثثة كان يتصدرها (المعاون) بكرشه المنتفخ . . وراء منضدته المنسقة وما ان رشقت نظراتي المتعبة الهراوة الغليظة المنتصبة بجانبه في زاوية الغ حتى اثارت الرعب والفزع في نفسي فاطبقت اجفاني لحظة لتعيد خلالها ذاكرتي احاديث سهيل عنها . . وسرت رعشة قوية في اوصال جسمي . . لم استطع تمالكها . . وبادرني هذا بابتسامة خبيثة خلتها انتزعها من ملامح الشر المرتسمة على قسماته . . وهو ينفث دخان سيكارته الاجنبية الذي تمدد دخانها فغمر وجهي . . وبدأ يسألني بتهكم وسخرية عن المظاهرة ؟ وتأييد اشتراكي فيها . . وعن الاضراب ووعدني بانه سيفرج عني حالا اذا اعطيته اسماء زملائي الذين اشتركوا معي في التحريض على الاضراب . . او اسماء الفئة الموجهة . . ؟ ! وكنت اقابل اسئلته الكثيرة . . والمتشعبة بدهشة وغرابة . . وانكار تام عن معرفتي لكل ذلك . .

ثم مضت فترة صمت طويلة حسبت ان كل شيء قد انتهى وسيطلق سراحي عما قليل . . اذ اخرج من جرارة منضدته ورقة صغيرة . . واقترب مني ثم طفق يسألني باستهزاء . .

ـ لقد وجدنا هذه بين كتبك . . انظر اليها . . ؟ ! ! فيها دعوة للاضراب انها بخط يدك . . ؟ ! ماذا تقول عنها . . ايها الزعيم . . ايها (. . .) واجبته بعد ان نظرت اليها طويلا . .

ـ لا اعرف عنها شيئاً . . ؟ ! !

واشتدت نبرات صوته عن قسوة وغلاظة والدفع يقول بصراخ

ـ بخط يدك . . يا شيوعي . . يا . .

وقاطعته مستدركاً .

— لا . . لست شيوعياً . . انما انا عربي . . اؤمن بعروبتي . . وبوحدة وطني . . وبحق امتي في الحياة الحرة الكريمة . .

— بهذه الوقاحة تجيب يا قذر ! ! . . يا ابن (. . ! !) . .

وتلقيت من كفه العريض قبل ان ينهي شتيمته .. اول صفعة هوت على وجهي بقوة .. جعلتني افقد توازني .. وكدت اسقط على الارض .. لولا استناد يدي بمنضدته .. إذ بدأت احس بشيء دافيء يرطب شفاهي ثم تلاقفتني الايدي من ورائي لئلا ابتعد عن ركلاته القاسية والرفسات التي لم اكن اعلم من اية جهة كانت تتوجه نحوي .. وانهال علي الصفع والشتم من كل مكان .. وكنت المح الهراوة الغليظة تشتد ضرباتها بقسوة في ظهري دون هوادة وانا مستسلم لا ابدي سوى صرخات التوجع التي كادت تتلاشى مع اشباح المرئيات .. ولم اعد استطيع تمييز قطرات الدم التي كانت تنز من وجهي .. وتتساقط متجمعة في بقعة صغيرة فوق بلاط الغرفة وشعرت كأنني اغيب بعيداً .. وان الضوء يتلاشى فيموت وان الاصوات تنزلق الى اغوار معدنية .. وتتجاوب باصداء رهيبة ولم اعد احس بما حولي .

وافقت على صوت صديقي سهيل .. وهو يقدم لي لفافة تبغ مشتعلة .. وتلفت لأجد نفسي مستلقياً على الارض مفترشاً اوساخها فتناولتها من يده والابتسامة للفاترة تشق طريقها بين اثار الدموع على وجهي الملطخ بالدماء .. واردت ان اتكلم فلم يسعفني لساني .. واشرت له بيدي فهز رأسه عن ابتسامة مشرقة كأنه ادرك ما كان يساورني بالذات وهو يضغط بمنديله المبلل فوق وجهي ليمسح

قطرات دم جديدة .. ظهرت عليه وهو يقول بصوته الخافت ادركت منه .

ـ هي معركتنا ياهشام .. معركة المصير المشترك فهناك في بورسعيد حيث الشعب العربي يسترخص دماءه من اجل الحرية ويقاتل الاستعمار وهنا نجود بدمائنا ونكافح اعوان الاستعمار .. وينزف الدم العربي في كل مكان من اجل الحرية نفسها .. حرية الشعب العربي وكرامته.

مدينتي ..

تودع الرجال ..

.. رذاذ المطر .. لا زال يرشق وجهي بحرية .. ويداعب اجفاني المرتعشة بطلاقة .. اكاد احس بقطراته متجمعة في نهاية ذقني .. لتتساقط منها على يدي المتشابكتين امام صدري الذي كان يخفق خفقات متقطعة مع وقع خطاي الرتيبة فوق الرصيف المحاط بالاسفلت لتصافح مسامعي بنغمات متسقة .. اذكر انهم في أمسية كهذه قبل عامين كانوا يبحثون عني .. وكنت اراهم للمرة الخامسة .. يدخلون بيتنا الصغير .. بقبعاتهم البغيضة المثبتة على رؤوسهم .. وبملابسهم الخاكية الملطخة بدماء الابرياء .. وباسلحتهم المتأهبة للفتك .. كانوا يفتشون عني اطراف البيت .. والحبال تعانق ايديهم .. وكنت اسمعهم يتحدثون بهمسات مع بعضهم عن خطورتي .. ودوري في الثورة ..!؟ وكيف استطعت الهروب منهم .. لقد شاهدتهم يعيني يجرون اخي الصغير (ماهر) بقسوة وعنف .. وقد اقتاده ومعهم الى حيث لا ادري .. وعندما لحقت بهم امي متوسلة تريد توديعه رفسها احدهم بوحشية صارمة وصوب نحوها فوهة رشاشته .. باصقاً في وجهها الجعد .. وقد سال بصاقه في اخاديد صفحته .. لقد رأيتها تعود راجعة بدموعها التي تكاد تغسل اثار البصاق .. واردت ان اترك محلي لالحق بهم .. منقضاً عليهم ثائراً لكرامتي ،، رغم تأكدي بان الحبال ستأخذ طريقها الى رقبتي وان السحل في شوارع المدينة سيكون نصيبي ،، كما فعلوا بكثيرين غيري في اليومين الماضيين ،، ولو لا توسلات امي ،، ووقوفها متضرعة في وجهي ،، لفعلت ذلك .. اذ ابت باصرار وحزم ،، إلا ان اعوه الي مخبأي ،، حيث لا يعرفون به ،، ولكي لا اقع في قبضة ايديهم القذرة ،، كما انها كانت

تعلم تماماً ما يبيتون لي بالذات من حقد وكراهية للقضاء علي ،، وقد سمعت بعضهم يتحدثون وكأنني اسحل في الشوارع .

وبدأت ارفع رأسي المثقل من اطراقتي الصامتة لاجد الرصيف ما زال يمتد امامي في الظلام ،، متلقياً الصفعات المتوالية ،، دون هوادة من حذائي المبلل ،، وصافحت عيناي تلك الشعاعات الباهتة التي كانت تنفثها المصابيح المتناثرة في ارجائه لتشكل امامي ظلالا واهية ،، راحت تسابقني للطريق ،، وتنشر في افكاري صور الماضي .. ولتثير في اعماقي مشاعر الآلام والكآبة .

. . ما كنت اعلم بانهم سيقتلون اخي (ماهر) . . ؟ لقد غدروا به . . وفتحوا عليه نيران رشاشاتهم . . ومزقوا جسده الطاهر . . برصاصاتهم الطائشة . . ولن انسى صورته المشرقة . . وبراءة الطفولة المرتسمة على قسمات وجهه . . فهو في عمر الورود . . لم يتجاوز ربيع الخامسة عشر من عمره بعد . كنت احبه كثيراً . . واعقد آمال المستقبل عليه بعد ان كاد ينهي دراسته المتوسطة بنجاح مستمر وتفوق باهر . .

وتقدم احد الحرس المكلف بحراستي وجرني من ذراعي ليفتح امامي باب العربة . . ورحت اتلمس الطريق وراءه في الظلام . . ثم القيت بجسمي المبلل فوق المقعد الصغير . . الذي شاركني فيه صاحبي بينما جلس زميلاه في المقعد الخلفي . . ما زلت في جلستي الكئيبة هذه منذ ساعة اتطلع حيناً الى مبنى المحطة الشامخ امامي والذي يمتد بيني وبينه هذا الرصيف الخالي الا من حفنة اشخاص انزوى بعضهم في ركن من اركانه المسقوفة ليتقي المطر . . وليحدث مودعيه . .

وكنت احياناً اجتر ذكريات الامس القريب . . واية ذكريات هذه التي تشمئز منها النفوس الطيبة . . هذه الذكريات المليئة بالدماء والدموع . . المفعمة بالمآسي والآلام . . فهم لم يقتلوا اخي ماهر وحده . . ؟ وليتهم فعلوا ذلك وحسب . . ؟ ! انما مثلوا ابشع تمثيل باجساد العشرات من ضحايا بلدتي الحبيبة . وابرياء مدينتي الوديعة وما زالت شوارع الموصل مضرجة تشير الى اثارهم . . واعمدة الكهرباء فيها ملطخة بدماء اولئك الشهداء . . كنا نفتش عن جثة اخي . . وقد بحثنا عنها في كل مكان . . فلم نجدها . . مسكينة امي . كانت هي الاخرى تحب ماهر . . اكثر مني ، وتوصيني به دائماً ان يكمل دراسته ، وتعقد على مستقبله كل امالها ، قيل لي بانها في امسية سوداء ذهبت حافية القدمين الى موقع (الدملماجة) تبحث بين الجثث المشوهة عن ابنها ، وظلت تنتقل من مكان الى آخر باحثة عنه فلم تعثر عليه .

وتهدد ظلام الغرفة فجأة ، وكدت المح خلال الضياء الكئيب عيوناً شاخصة تحدق متسائلة عني ، وانا قابع في مكاني ، والصمت الثقيل يكاد يلفني بوشاح قاتم ، تكلله الذكريات السوداء ، وبقايا قطرات المطر ترطب وجهي ، وفوهات بنادق تحيط بي ، واستطعت ان اميز خلال الصخب همسات قلقه استرقتها مسامعي ، تريد معرفة قضيتي ، او سبب اعتقالي فمنظري هذا ولا شك يثير المشاعر والاحاسيس ويبعث على التساؤل واردت ان اتطفل فاجيبهم ، ولكن بماذا ! ! حتى انا نفسي لا اعلم سبب اعتقالي والى اين يريدون الذهاب بي ، فقد سألتهم في الصباح عندما اجتازت ثلة من افراد الشرطة

المعمل الكبير ، الذي اشتغل فيه ، لتجرني من وراء الالة المكلف بمراقبتها ، وصيانتها ، ولتنتزعني من احضان معملي مع الاهانات امام زملائي للعمال ، اذ امتزجت اصوات شتائمهم مع هدير الالات وصخبها ، وقد سألتهم برجاء عن قضيتي ، فلم اتلق سوى الزجر ، ولم يخبرني عنها احد ، فساورتني هواجس مختلفة عن تهمتي وافكار متباينة عن جريمتي ، وهم يلقون بي في غرفة التوقيف منذ الصباح ، وبادرني الاعتقاد بان التهمة التي ستلصق بي هي تهمة (التآمر ! !) على سلامة (زعيم البلاد ! !) ، (الاوحد . !) وما اسهل هذه التهمة ، ان تلصق باي شخص ! ؟ الا ان احد افراد الشرطة كان قد تألم للاهانة التي تلقيتها طيلة ساعات النهار من زملائه ، فراح يختلس الفرص لمحادثتي ، واخبرني بصوت خافت كأنه ادرك في هذه اللحظة ما كان يساور افكاري ويراود مخيلتي ، واعلمني بانني متهم بتدبير حملة الاغتيالات على عصابة الشيوعيين في الموصل ، وكدت اطمئن بعض الشيء ، الى هذه التهمة ، فقد سبق لي ان اتهمت بجريمة اكبر ، وهي ايماني بعروبتي ، وبحق امتي في الحياة الحرة ، الكريمة ، وقد ادت هذه الجريمة ، الى الحكم بقتل المحامي ماهر في (الدملماجة) وما زلنا حتى الآن نبحث عن جثته رغم هذه المدة الطويلة ، واستطعنا ان نجد بضعة عظام وضعناها في حفرة وواريناها التراب ، لنقنعها بذلك نظراً لكونها كانت تريد قبراً تلتجيء اليه ، في المواسم والاعياد .

ولعلت صيحة داوية ، مزقت صمت الليل العميق ، وتجاوب صداها في ارجاء مدينتي الهادئة ، وتذكرت هذا الموعد بالذات ، حيث تلتقي شفاه ، وتدمع مآقي ، وتهتز ايد وتلوح مناديل ، وان

امي في هذه الساعة لا تعرف شيئاً عني ، سوى انني ساعود اليها بعد فترة من الزمن لأتناول العشاء الذي اعدته لي ، ولانهم لم يسمحوا لي باخبارها عني .

وانطلقت وشوشة القاطرة بصوتها الداوي تعبث بسلسلة ذكرياتي ،، وبدأت العجلات الدائرية تتمطى ببطء لتجر معها العربات المتسقة في صف منتظم ،، وليندفع القطار وراتها زاحفاً . كأنه يحمل في اعماقه هماً ثقيلا يريد التخلص بصيحاته المتواصلة وتزداد حركته وتنبعث اصوات عجلاته ،، بوتيرة منتظمة وطفقت المس مواضع الحديد في يدي ،، إذ ما زال يلسع معصمي بقسوة صارمة فيمتص الحرارة منه بنهم ،، وقد سرت رعشة قوية في اوصالي ،، هزتني بعنف فوددت لو استطيع ابعاد طوق القيد عن يدي قليلا لأرتاح بعض الشيء ،، ونظرت الى صاحبي ،، فألفيته صامتاً ،، وكأنه يقول في سره بعد ان ادرك غايتي ،، لا مجال لما تريد يا هذا ،، اخشى على لقمة الخبز لعائلتي .

وفجأة احسست بيد تضع شيئاً على ظهري ،، ولسويه ،، فرفعت رأسي متلفتاً ،، إذ وجدت احد المسافرين معي في العربة قد احس بتلك الرعشة التي هزت كياني فنهض من مكانه والقى بمعطفه فوق ظهري ،، واستقبلتني الابتسامة الوديعة المرتسمة فوق شفاهه المرتعشة تحت شعيرات شواربه البيضاء التي تدل على الوقار والاحترام ،، واحس هو بنظراتي المتسائلة فأجاب على الفور ،، مستدركاً ،، بصوت هادىء تغلغل في اعماقي بالحب والتقدير لهذا الرجل الكريم ..

ــ لئلا تصاب بالبرد يا ابني .. ؟!

واهتز رأسي لصاحب القلب الكبير ،، مع ابتسامة فاترة ،،

استطاعت ان تشق طريقها من بين ملامح الالم والكآبة المطبوعة على وجهي منذ الصباح ،، واردت ان اقـول شيئاً ،، إلا ان لسـاني لم يطاوعني ،، ثم رجوعه المفاجيء الي مكانه لم يترك لي مجالا للتعبير له عن شكري وتقديري ،، ما جعل الكلمات تموت متلاشية على شفاهي ولاول مرة في حياتي ،، شعرت بالعطف الابوي الذي كانت الاقدار قد حرمتني من سعادته ،، منذ الايام الاولى لطفولتي .

فعشت في احلامه التي تمثلت امامي في صورة هذا الانسان الكبير .

وعدت الى القيد الحديدي ،، فاذا به هذه المرة يبعث طاقة من الحرارة ،، الي يدي القويتين ،، فيسري الدفء منهما الى اجـزاء جسمي ،، وادركت انني لم اكن وحدي في هذه المعركة ،، معركتنا مع الظلم والطغيان ،، انما الشعب بأسره ،، يؤيدني ويقف الى جانبي ونالت مني التفاتة الى زجاج نافذة العربـة المغطى بطبقة من بخار كاد يحجز عن النظر كل شيء في الخارج ،، ورفعت يدي المتعانقتين لامسح بهما فجوة كدت انظر منها الي الظلام الرابض هنـاك فـوق مدينتي الحبيبة بكلكله ،، وخلال التلال المنتشرة حولها ،، استطعت القاء النظرات الاخيرة الي ضيائها الخافت المنبعث من اطرافها ،، وكدت اهتف بها من اعماقي .

ـ سأعود اليك يامدينتي ،، وسيعود معي رجالك الابطال حاملين مشعل الثورة .

مات .. مع الفجر

كانت الامور - بالنسبة لي - قد سارت حتى الآن بصورة طبيعية واعتيادية .. رغم الهمسات التي كنت احس بها تلاقفها الشفاه .. والوشوشات التي كان يدور صداها في ممرات وشعب دائرتنا الواسعة .. ورغم الوجوه المتباينة الملامح .. التي كانت تطالعني لزملائي وزميلاتي في الوظيفة بتعابيرها المختلفة .. اذ انحها في هذه اللحظة تقذفني بنظرات فيها العطف وفيها الغدر .. وفيها التشفي .. كل ذلك دفعني للشعور بوجود سر غريب يكتنفني وحدي لم اعره اول الامر اي اهتمام .. بل تركت الامور تسير على سجيتها .. فلم اثر سؤالا حول ذلك .. ولم اتطرق بالحديث معهم عن الموضوع .. انما كل ما كان يشغلني انذاك هو طفلي الصغير « وليد » الذي لم يتجاوز الربيع الثالث من عمره .. وأناته الخافتة التي تصم مسامعي عن تلك الهمسات .. وتحول دون الالتفات الى الوشوشات. فقد تركته في الصباح والحرارة تلهب جسمه والعرق يتصبب من اجزائه .. وان وجهه الذابل بشفاهه المرتجفة إذ تملأ مخيلتي .. وتسيطر على افكاري .. ولم تدع لي مجالا للتفكير في الامور الشاذة التي تمر بها دائرتنا في هذا اليوم بالذات .

وتمضي عجلة الزمن متباطئة في دورانها .. متثاقلة في سيرها لتزيد من قلقي ولتجدد اضطرابي .. واعود للمرة العاشرة انظر الى ساعتي التي لا تزال عقاربها تشير الى الثانية عشر ظهراً .. ولا زالت هناك ساعات طويلة لانتهاء الدوام الرسمي .. وان المدير العام ما زال مصراً على عدم منحي الاجازة للذهاب الى بيتي .. ربما اعتقد - خاطئاً - بانني اخدعه وقد كذبت عليه .. عندما اخبرته بان طفلي مريض .. ويحتم علي ان اكون الى جانبه لرعايته .

ولم يكن المدير العام وحده الذي قابلني باستهزاء وسخرية عندما طلبت منه اجازة لترك الدائرة انما زملائي وزميلاتي في الشعبة كانت نظراتهم نحوي ملؤها الازدراء والعنف فكانت تزعجني ضحكاتهم وغمزاتهم تثيرني بل وحتى الفراش المكلف بخدمتي كانت نظراته المنكرة بذل واستعطاف .. قد تحولت الى نظرات حادة تكاد تمزقني .. ولهجته التوسلية قد انقلبت الى لهجة شديدة صارمة .. واسلوب مخاطبته لي قد تغير الى اسلوب قاسي .. كأنه هو المدير المسؤول عني .. ورغم ذلك فقد تركت الامور بما يتخللها من تطورات شاذة لا عهد لي فيها لأعود الى التفكير في وليد حفظه الله والحمى تسري في جسمه منذ الليل .. وماذا قد حل به في هذه الساعة ياترى؟ وبدأت الوساوس تدب في افكاري والتجأت الاوهام تعيث في مخيلتي ..؟! ربما الغطاء قد انزاح عن جسمه في هذه اللحظة .. وتمثل امامي جسده المرطب بالعرق .. تلامسه قرصات البرد اللاسعة . قد تؤول بمرضه البسيط الى مضاعفات او تؤدي بحياته الغالية .

وينتهي الدوام الرسمي اخيراً ،، بعد هذا الانتظار المرير .. لانطلق من سجني الكئيب الذي ارتضيته وخرجت تاركة غرفتي التي كنت احس بها معتمة تريد خنقي وكبت انفاسي .. وما ان سرت في ((الصالون) المؤدي الى الباب الخارجي حتى وجدت حشداً من الزملاء والفراشين قد اجتمعوا قرب الباب يتباحثون في امور لاعلاقة لي فيها ،، وفجأة لمحت انظارهم تتوجه نحوي بطريقة غير مألوفة .. وظننت اول الامر بانهم ربما احسوا بما اقاسيه الآن ؟! او من المحتمل ادركوا حقيقة مرض طفلي فراحوا يشفقون علي بنظراتهم ،، ولكن الرعب بدأ يسيطر علي عندما صافحت الحبال المعانقة ايديهم نظراتي

.. وبدأ الشك يساورني عندما رأيت هذا الرجل الغريب بينهم فقد راح يحـدقني بنظرات قاسية كلها حقد ،، اذ استطعت تمييزه من ملابسه الخاكية التي تدل على كونه من زمرة المقاومة الشعبية وكدت ارتجف خائفة ،، وافقد توازني في دفع خطواتي المتعثرة ،، وسرعان ما غمز لة احدهم بطرف عينه ،، واشار آخر بيده نحوي ،، ما جعله يتابعني ،، ثم اطبق على حقيبتي اليدوية الخاصة ،، شاهراً مسدسه في وجهي .. وهو يسألني بلهجة صارمة

ـ ما اسمك ..؟!!

واجبته بتردد . . كأن الحبل المعانـق يده الاخرى قد انتقل الى عنقي ليطبق عليه يريد خنق انفاسي .

ـ فائزة ..م.. م.. محمد. . ؟ ! !

وراح يتطلع في ورقة اخرجها من جيبـه . وتمعن فيها وطالت نظراته في اسطرها .. وقدعلمت انها تحوي على قائمة اسماء .. لم يجد فيها اسمي . . اذ شعرت كأنه يريد تركي . . ولكن احـد الزملاء اقترب منه هذه المرة وهمس في اذنه كلمات واسره شيئاً اذ ابتسم صاحبنا لهذا الامر ابتسامة ماكرة . . تخللتها نشوة الفوز وهو يهز رأسه لم يلبث ان تناول منه قلماً وسجل اسمي في نهاية القائمة التي بيده . . ثم اشار علي بعدم الخروج . . لحين التحقيق . . فتوسلت اليه متضرعة . .

ـ ولكن طفلي مريض . . مريض في البيت ولا يوجد من يرعاه يا اخي ارجو ان تسمح لي بالذهاب . . ؟ !

وسمعت قهقهته تمزق قلبي . . وهو يقول . .

ـ اسمح لك ؟ ! يا (. . . .) ؟ ! سنقتلـك انت وابنك . .

سأسحلكم في الشوارع . . ؟!

وهنا تقدم نحوي ذلك الزميـل باصقاً في وجهي . . فنظرت
نظرات ازدراء واحتقار . . وباشارة منه قادني بعضهم الى غرفـ
ليفتشوا فيها عن وثائق التآمر بيـن اوراقي الخاصـة وفي الاور
الرسمية . . فراحوا يبعثرونها في ارجاء الغرفة ولما عجزوا عن العثو
على ضالتهم . . التفت اليه مستدركاً :

ـ الوثائق . . هناك في دارها ؟! حتماً . .

وقهقه الجميـع لهذا الحل الصائب . . فسارت الزمرة (الشريفة
من الموظفين والمستخدمين يحيطـون بي من كل جانب كي لا افر م
قبضتهم . . وهم يسمعونني من الفاظهـم القذرة وشتائمهم الوس
ليدفعوا بي بين السخريـة والاستهزاء الى افراد من الشرطة كانوا
الانتظار والتهيوء في خارج الدائرة . . فوضع احدهؤلاء القيد الحديد
في معصمي ثم اركبوني سيارة عسكرية . . لقلتني الى مركز للشرطة
وهناك ادخلت الى غرفة للتحقيق حيث كان يتصـدر مقاعدها افر
المقاومة الشعبية ووجدت في منتصف الغرفة منضـدة منسقه جلس
ورائها احدهم وقد جلس الى جانبـه ضابـط للشرطة فاغراً فاه . هذ
لا ينبس ببنت شفه . . ولمحت قسمات الالم مرتسمة على وجهه و
يشاهدني في موقفي هـذا ماثـلاً في ذلة وانكسار امام هذه الوحوش
البشرية التي فقدت كل مقاييس الاخلاق وانتزعت منها قيم الانسا
والقيد الحديدي لا زال يحز يدي . . وبدأ يستجوبني بكلمات تافهة اذ
ويسألني عن اسماء اشخاص وحوادث لاعلم لي بها . . ويناقشني في ثورة
الموصل . . ويحاججني في معنى القومية ومفهوم الوحدة العربية . افرا

امور كثيرة لاعهد لي بها وكأنني انا المسؤول عن هذه الثورة ومفاهيمها.

وبعد فترة من الصمت لا ادري مداها . . دخل احد مفوضي الشرطة يتقدمه (مقاوم شعبي) وتحولت الانظار نحوه . . وسمعت احدهم يسأله . .

— هل اجريتم التفتيش في دارها . ؟ !

واجابه هذا بعد ان استعد في وقفته :

— نعم . ! ! ولم نعثر على شيء . .

فهز رأسه مستدركاً .

— ربما هناك مكان آخر ، لنحقق معها .

وبدأ التحقيق معي باساليبهم الخاصة ،، في الشتم والطعن ،، والضرب ،، ثم تركوني بعد فترة في غرفة مجاورة ..؟! واوصدوا بابها علي لتمزقني الآلام ،، ولتتقاذفني الافكار وتعبث بي الهواجس فطفلي الصغير لا زال يرتعش ،، واناته يرن صداها في مسامعي ،، وزوجي المسكين ،، من يدري ربما لا يعرف مكاني الآن ،، او هو جلسا زال يفتش عني ..؟! ربما لم يسمحوا له بمواجهتي ،، ولم افق من هذه الافكار الا على اصوات توجعات يطلقها بعضهم في غرفة التحقيق ،، ادركت انها للضربات القاسية التي كانوا يتلقونها من سياط الموجعة ،، في اساليب التعذيب البشعة .

ولا ادري هل تسرب للنوم الى اجفاني طيلة ساعات الليل ام لا؟! اذ انني كنت بين حين وآخر اتوقع فتح الباب ودخولهم علي بوحشية لاكمال التحقيق معي . . ولكنهم لم يفعلوا ذلك . . وفي صباح اليوم التالي اخبرني احد افراد الشرطة بانه قد تقرر اطلاق سراحي بكفالة نقدية . . وخرجت

لأجد زوجي في باب الموقف ينتظرني والآلام ترتسم على ملامحه .. ومخايل الاحزان فوق وجهه واثار السهر في عينيه ،، وسألته اول الامر عن وليد ،، فاخبرني بانه في خير ،، وهـو في الدار فخرجت معـه مسرعة ،، متوجهين نحو الدار في اول سيارة للاجرة.

وما ان وصلنا للباب الخارجي للدار واجتزناه لاترك زوجي في خطواته المترددة ولأدخل الى الغرفة التي يرقد فيهـا وليد ثم لازيح الغطاء عن وجه ولدي الصغير حتى وجدت يد زوجي تمسك بيدي بقوة ،، وسمعت صوته يقول بالم شديد وهو يدير رأسه عني ليخفي دموعه و ..

ـ لقد مات وليد.. مات مع الفجر..!!!

رقصة الاشباح

في تربص وتكدس . . انقبض الضوء حذراً وتمطى صدره . .
وترادفت انفاسه . . ثم انهمرت ألواح النهار . . وتشبكت ذوائبه
بذوائب الظلمات الطافية على التفافات العباب . . وراحت الغيوم
المتهلهلة في اقصى الأفق تواري الشعاع الأخير من الأشعة المحتضرة
وتلاشت الضوضاء التي كانت تسود هذه المدينة الكبيرة طيلة ساعات
النهار واختنق ضجيجها بأزيز الرياح . . وزمجرة العواصف الباردة
التي كادت تلف هذا الشارع المبلل برداء ثقيل من الصمت العميق . .
وتبدد الزحام وخلت الأرصفة التي كانت تعج منذ سويعات بشتى
صنوف البشر من مارة يسرعون الخطى لانجاز اعمالهم . . وباعة
اتخذوا من فسحته معرضاً لبضاعتهم . . ومتسولين يعرضون نماذج من
اجزاء اجسامهم المشوهة . . وسيارات تزحف بألوانها الزاهية . .
وزعيق ابواقها المزعجة . . فلم يبق من ذلك كله في هذه اللحظة بالذات
سوى الصمت الثقيل . . والشعاعات الباهتة التي كانت تنفثها مصابيح
متناثرة في ارجاء الشارع لتلقي بضوئها الخافت على ارضه المبللة بمياه
المطر . فيلمع بريقها الذابل . . ويصافح النظرات الزائغة لأبي فضيلة
بجسمه الهزيل المنكمش في معطفه السميك وقد اتخذ من الجدار المسقوف
متكأً له . . فمنذ ما يزيد على الساعة وهو جامد في مكانه هذا . .
يراقب . . رذاذ المطر الذي لا زال يرشق بلاط الشارع بقطراته
الكبيرة . . فانه إذ يذكر الآن زوجته وثوبها البالي وقد اخذتها سنة
من النوم تاركة لهب المصباح النفطي يلفظ انفاسه الأخيرة لنفاذ
وقوده . . او ربما لا زالت تنتظر قدومه كما اعتادت بلهفة وشوق . .
ومرت امامه صور متتابعة لأولاده الصغار تحتضنهم قطعة من الحصير .

التي كانت تفترش جانباً من تلك الغرفة القديمة . . ومن يـدري ؟ ربما هوى طفله الرابـع وتدحرج عن الحصير الى الأرض الرطبـة فهناك احتمال اكيد بأن مياه المطر قد تسربت سيول منها الى الداخل من خلال النافذة المرقعة . . او من بين الجدران المتصدعة . . فانه إذ كان يود اجراء بعض الاصلاحات على اقسام ذلك الدار بعد ان امتنع صاحبه عن القيام باصلاحها . . ثم هذا اصغر اطفاله الذي يلوح امام مخيلته وهو كلما شد شفتيه الحالمتين على ثدي امه الجاف ولم يجد فيه شيئـاً تعالى صراخه وعويله . . فلا تستطيـع هي ان تصنع اكثر من ان تسكب بعض الدموع التي تسقط على وجهه المضطرب كأنها تهدهده الى حين . .

وظل ابو فضيلة في وقفته المتراخيـة موليا الجدار ظهره ، ملقياً برأسه الكبير ووجهه الصامت على صـدره المثقل ، مرتكزاً براحتيه المفرطحتين على فوهة بندقيته ، يكفكف افكاره محاولا الابتعاد عنها والتي كانت تأبى الا ان تمر صورها في مخيلته لتثير في نفسه اوهام مرعبة ، ووساوس مزعجة غالباً ما تقلقه ، وهنا يلج الدهليز الطويل المعتم يجر اقدامه المثقلة بخطوات متهاطئة ، متحسساً طريقه الذي ينتهي بفناء واسع تبعثرت في اطرافه اكوام الحجارة نتيجة سقوط جدران بعض اقسام الدار ، فيتابـع خطواته بعـدم اكتراث لما حوله ، اذ لا بد ان يهز رأسه كعادته عند المقابلة الاولى مع ابنته الكبرى (فضيله) التي ترسل تضرعاتها ممزوجة بدمعات تكاد تخنق نبراتها وهي تلح في مطالبها الكثيرة ، من ثوب جديد و كتـاب الحر لا بد من شرائه ، وقلم حبر و . . و . . وهناك اشياء كثـيرة لم يحقق لها بعضها بالرغم

من وعودها ؟ ! ثم يحدق في وجه الاخرى بنظرات واجمة تمازجها ابتسامة فاترة ، وقد تعلقت به متوسلة تريد منه شراء دفترين للمدرسة واما طفله الاخر فقد تعربد بعطفه صارخا يريد ثوباً بدلا من هذا الثوب الممزق ، لانه اصبح موضع استهزاء وسخرية امام اترابه من اولاد المنطقة ، فيحاول (ابو فضيلة) شق الطريق امامه بتكاتف بين تضرعات اطفاله ، ودمعاتهم الساخنة ، ثم يتأهب للجولة الاخيرة مع زوجته ، التي قد لا تكتفي بمطاليبها ، بل ستضيف اليها كالعادة مطاليب طفلها الصغير الذي يعجز عن اداء مهمته ، بيد انه ، اذ لاحظ ما يثير الدهشة والاستغراب ، فانها لم تفعل ما توقعه منها ، ولم تطلب شيئاً انما راحت تمنع فضيله واختها عن ذلك ، وتطمئنهم بانه سيحقق مطاليبهم في يوم قريب ، ويتردد كثيراً قبل ان يخبرها بحقيقة ظلت تراود افكاره تلك الحقيقة التي لو ادركتها لتألمت حتماً ولتبدد شعاع الامل الذي يلوح في افقها هذه المرة . !

لا ،،؟! يجب اذن ان لا يخبرها بانه لا زال مديناً ثلاثة دنانير .. منذ مرضها الاخير لكي يدفع أجرة العلاج .. وثمن الدواء ،، وان صاحبه ما زال يطالبه ويلح عليه بالمبلغ وهو ما فتيء يمهله ريثما ينتهي الشهر فيسدد له المبلغ .. وما ان يستلم راتبه القليل الذي لا يكفي ثمن الخبز لافراد اسرته .. حتى يمهله الى الآخر .. وهكذا وقد مضى عليه حتى الآن عدد من الاشهر التي تنيف على العام .. وعندما قابله امس في السوق راح يكيل الشتائم ويؤنبه تأنيباً قاسياً امام الناس .. وربما سيرفع امره للسلطات المسؤولة .. ومن يدري قد ينتهي الامر به الى السجن .

لا بأس اذن ،، سوف لا يخبرها ،، لئلا تتألم فيعاودها المرض،، وهي ما زالت تتلمس شعاع الامل ،، وتبني عليه احلامها للغدالقريب ويتحرك قليلا من مكانه ،، ولفافة تبغ غير مشتعلة بين شفتيه ،، ليفحص ابواب المحلات ،، ويتأكد بانها محكمة الاقفال ،، وينفخ في صفارته فيمزق الصمت بصفير متواصل ،، يلوح على اثره امامه ،، في نهاية الشارع شبح داكن يقترب منه ،، فيخيل له اول الامر بان هذا الشبح هو (رئيس الحرس) اذ يرفع بندقيته ويثبتها على كتفه الايسر ويسير بخطوات متسقة فوق الرصيف متظاهرا بالنشاط المتمثل في ذهابه وايابه طول الشارع وعرضه ،، لكن ترى ما للرئيس وهذه الليلة العابسة المكفهرة ؟ ويقترب الشبح ليكشف عن حقيقته التي تنجلي اخيراً عن جسد متخدر راح يسير بخطوات متعثرة ،، يترنح فوق ساقين هزيلين يكاد لا يعي ،، تفوح من فمه رائحة الخمر ،، وتصور ابو فضيلة بان مائدة من موائد القمار في احدى نوادي هذه المدينة قد لفظته في هذه الساعة المتأخرة من الليل ،، وتردد قبل ان يسأله عن عود ثقاب يشعل به سيكارته التي ما زالت متعلقة بين شفتيه .. ويقف هذا فجأة محاولا الاستناد الى الجدار ليفتش في جيوب سترته عن علبة الثقاب ،، ويلمحه ابو فضيلة في وقفته المترنحة يجر من جيب سرواله حفنة من الاوراق النقدية التي ضغطت عليها انامله في قبضة يده ،، وراح يمعن النظر فيها ويورقها كأنه يحاول احصاءها،، وظل ابو فضيلة يراقبه ،، اذ جالت في نفسه خاطرة عابرة ،،لايدري كيف ينفذها هل ينقض عليه فينتشل منه قسما من هذه الاوراق ؟.. فهو بحاجة اليها ،، اكثر منه ،، لاشك انه لا يعي ..؟؟!ام يستجديه

عله يعطف عليه ببعضها ،، ولكن ما لنفسه لا تطاوعه ؟! اذ احس فجأة برعشة قوية تسري في جسمه اطبق على اثرها اجفانه المسهدة ،، لم يلبث ان فتحها ليجده يتمرجح امامه فوق الرصيف .. وراح يتبعه بخطوات متهاطئة متأهباً للوثوب عليه .. وكادت هذه الفكرة ان تختمر في رأسه فتصدر اوامرها له بالتنفيذ .. ليسرق ما تستطيع يده عليها ،، فهو بحاجة ماسة لهذه الاوراق .. قد تنقذه من بعض مشاكله .. لولا انه ينتبه فجأة الى التفاتته القاسية التي رمقه من ورائها بنظرات حادة كادت تمزق احشائه ،، وسمعة يطلق سيلا من كلمات متقطعة والفاظ غريبة لم يفهم لها معنى ،، كادت تشتت افكاره وتبعثر مشاريعه ،، فلابد انه ادرك اهدافه من وراء اللحاق به ،، واراد ان يعود ،، وما كاد يفعل حتى احس بشيء يسقط من يدي ذلك الرجل الي الارض فهوى عليه ،، فاذا بها ورقة دسها في جيبه من دون ان ينظر الى قيمتها ،، وهو يتلفت لئلا يحس بها احد ،، وتلمستها انامله تخبره عن قيمتها التي لا تقل عن الخمسة دنانير ،، ولاحقه بنظرات قلقة والظلام يبتلعه ثم تمثله فجأة وهو يعود ،، باصقاً في وجهه صارخاً باعلى صوته ،، هذا لص ،، سرق مني خمسة دنانير ،، امسكوه ،، اين الخفير ،،؟!

فتضيء النوافذ المطلة على الشارع اثر صرخاته ويجتمع حوله بضعة افراد من ارجاء الشارع ليجدوا الخفير نفسه وهو يحاول الفرار لص ، لص ، يستحق اكثر من سجن ، ربما سيضاعف عقابه ، واراد ان يلحق به ليخبره عن تلك الورقة ، فربما يرثي لحاله ، ويقول له لست بحاجة لها ، لعلها قد تحتاجها . ؟! واندفع يهرول ، باحثا عنه

في اطراف الشارع ، فلم يجده ، وعاد يحملها وقد كادت تثقل يده ، فهو لص ، سارق ، لا ، لا ، سيقسم لهم بانه فتش عن صاحبها ولم يجده ، ترى من سيصدقه ؟

وعادت امام مخيلته صور اولاده وزوجته وشبح مدينه ، تلك الافواه الفاغرة التي سيوزع هذه الورقة النقدية بينهم ، وانتظر بفارغ الصبر نهاية حفارته ليذهب بها الى زوجته وليجعلها تشاركه فيها ، لن يقول لها بانه سرقها من سكير ، بل سيجيب بها مطاليبها ومطاليب اولادها ، انما يجب ان يسدد دراهم مدينه قبل كل شيء ، وكادت السعادة تتراقص نشوى بكافة اشباحها على مسرح افكاره ، وعلى انغام دقات قلبه ، لولا كلمة واحدة سيسمعها من ذلك الرجل وهو يعود صارخاً في وجهه ، لص انت ، لص ، ويرتعش لهذه الفكرة القاسية وهي تعبث بسعادته ، وترتجف اوصاله ، وحاول ان يرمي تلك الورقة بعيداً ، لئلا تؤدي الى فصله من وظيفته هذه ، التي استطاع الحصول عليها بعد جهود محاولات وانه اذ يذكر الآن كم قاسى من ذل وخضوع من ورائها ؟ ! وانتظر ثانية ليستمع الى دقات الساعة الكبيرة ، التي طفق يحصي دقاتها بانامله وبصوته وبكل اجزاء جسمه . .

ثلاثة . . اربعة . . احدى عشر . . ؟ ! فهناك ساعة اذن . . ساعه واحدة . . قد يستطيع ذلك الرجل خلالها العودة اليه ليسأله عن الخمسة دنانير التي سرقها منه . . وقد يجرأ على تفتيشه . . والويل له اذا عثر عليها لديه . . سيرميها اذن الى مكانها فوق الرصيف . . وطرقت اسماعه صرخات اطفاله وبكاءهم المرير . . وشتائم مدينه . . ما جعلته يضمها في طية من طيات معطفه . . لن يعثروا عليها مطلقاً

مهما حاولوا تفتيشه . .

وراح يتلمس طريقه في الظلام . . فان زوجته قد فاتها ان تضيف بعض النفط الى خزان المصباح ، ، مما ادى الى انطفائه ، ، وراح يفتش عن شمعة يشعلها ، ، ليحدق في الورقة وليطمأن عن قيمتها التي قد تكون اكثر مما عهده .

وهنا هبت زوجته فزعة اثر صرخة اطلقها كادت تمزق صمت الليل ، ، وراحت تسأله بدهشة عما جرى له ، ، لم يلبث ان اجابها بحسرة وألم وهو يلوح لها بورقة :

— انظري ، ، فقد كنت احسبها ورقة نقدية ، ، ؟ ! ! لم يلبث ان مزقها ، ، ورمى اوصالها نحو الأرض محاولا التخلص منها ، ،

آثار القيود

كتبت بعد ثورة ١٤ تموز سنة ٩٥٨ مباشرة

كان الارق قد امتد معه الى ساعة متأخرة من ليلة امس ،، ما جعله يهادل نفسه شتى الاحاديث ويناقشها صنوف الافكار ،، ويعرض عليه صور متباينة لخواطر متواردة مر بها طيلة ايام الاسبوع والتي كادت تنتهي امس على رصيف محطة القطار بوداع حافل وبامنيات حارة ،، واحلام سعيدة ،، وبالرغم من محاولاته فقد ظل يقاوم الارق والسهاد ويجاهدهما ،، ولا يدري بالذات متى استسلم للرقاد ،، ولكنه يعلم بانه استيقظ في ساعة مبكرة من فجر هذا اليوم خلافاً لعادته ،، فقد اعتاد من قبل ان يماطل ويسوف ازاء نداءات والدته والحاح اخته بالذهاب الى عمله ،، ويظل هو يتقلب على الفراش متوسلا اليهم ان يتركوه ،، مما قد يمتد به النوم وقتاً طويلا .

اما اليوم فلا يستطيع تحديد الوازع الذي جعله يهب مذعوراً تاركاً فراشه في الطابق الاعلى ليهبط درجات السلم مسرعاً بالنزول ،، كأنه على موعد مع احد مما اثار الشك في نفس والدته واخته وجعلهم يتهامسون عليه ،، الا انه لم يعر كل ذلك اهتماماً فهو يعلم تماماً مدار تلك الهمسات واراد ان يتشاغل عنهما بالاستماع الى جهاز الراديو الذي راح يدير عقربه متضرعاً للوصول الى اقرب محطة اذاعية ، وبالرغم من اعتقاده الجازم بانه لن يستطيع العثور في هذه الساعة المبكرة على اذاعة عربية ،، فقد راح يستجديه صوتاً مهما كان لصخب موسيقى او لترنيمة غناء عله يجد في ذلك مؤاساة لنفسه ،، وتبديداً لما يساورها من ومضات وما يخالجها من مشاعر غريبة فهو الآن ،، اذ يحس بفراغ كبير يملأ نفسه الحائرة وبلهفة تثير حرارة الشوق في اعماقه فتصهر احشاءه ،، وبقلق طاغ ،، تكاد معاوله تهوى على رأسه دون

هوادة تريد خنق انفاسه وتحطيم جمجمته .

وطفق يعالج جهاز الراديو بتؤدة فينقل ابرته بدقة وبطء ممتلساً صوت مذيع او مقاطع اغنية او معزوفة موسيقية مهما كان نوعها ،، وانطلق فجأة صوت (هنا بغداد ؟!!) ولا يدري بالذات لم اثار هذا الصوت الرعب في نفسه والفزع في اعماقه ؟! فهو منـذ زمن بعيد لا يود الانصات اليه ولا يستسيغ الاصغاء الى برامجه التافهة وتعليقاته المغرضة وتمثل احد المذيعين سينعق عما قليل بالتعليق السخيف (اخي العربي حيثما تكون ؟!!) هذه العبارة البغيضة التي اصبح يمج سماعها لما فيها من دس واضح ،، ويمقتهـا لما تخفيه بين طياتها من اراجيف واكاذيب على المخلصين من ابناء العروبة لم تعد تنطلى على احـد من ابناء الشعب .

واراد ان يدفع ابرته الى مكان آخر غيره ليس فيه هذا الصوت المرعب الذي يثـير كوامن الحقد في نفسه ويبعث فيها شعوراً غريباً يجثم فوق صدره ويزيد انقباضه او قد يضيف الى قلقه عوامل اخرى تحيله الى ثورة عارمة لا يهدأ منها الا بالبكاء . . فان كان لا يستسيغ هذا الصوت! ومن حقه ان يفعل نظراً لاعتقاده جازماً بانه صوت اسرائيل بذاته او صوت بريطانيا بل وصوت الاستعمار متمثلا في اذاعة بغداد . . ولكن الصوت عاد يجلجل هذه المرة بقوة وحماسة . . وبنبرة حادة وبلهجة غير التي اعتاد سماعها . .

(هنا بغداد . . محطة اذاعة الجمهورية العراقية ! !)

ومد يده مسرعاً الى زره ليخمـد صوته قليلا او ليخرسه لئـلا يسمعه احد . . فهو يخشـى ذلك . . وتلفت ليجـد والدته فقط اذ

كانت مشغولة في اعداد شاي للصبـــاح واطمئن بان احداً غـــيره لم يسمع تلك الاذاعـــة . . فانـــه اذ يخشاها . . ويخشى كل شيء من ورائها . . ؟ ! انما نتيجة ما سمعه وما لاقاه هو نفسه من تلك الزمرة التي اوقفت نفوسهـــا وباعت ضمائرها ونذرت خدماتهـــا للسهر على مصالح المستعمر واذنابه . . أجـــل فقد اصبـــح يخشـــى كل انسان يصادفه في الطريق او ينظر اليه فلا يعلـــل تلك النظرات الا وتخـــفي وراءها عيوناً مترقبة تتلصص وتتجسس على حركاته وخطواته . . وحتى اصدقائه . . اذ حاول التجنب والابتعاد عنهم . . نازعاً كل ثقة من اقربهم اليه . . بل وقد امتدت غريزة الفزع في نفسه ما جعلته يخشى حتى افراد اسرته . . فلم يعد يثـــق باقرب الناس اليه . . ومن حقه ان يعتبر هو جميعهم جواسيس عليه . . فقبـــل حقبة من الزمن عندما اراد الحصول على جواز سفر الى خارج للعراق لـــكي يكمل دراسته العالية . . تصدت له تلـــك الفئة الموالية . . باضبارة مليئة باخبار ملفقة وبمعلومات مزيفة عنه . . ووجهت اليه حفنة اسئلة عن اعمال قام بها في حياته الدراسية او كان يروم القيـــام بها تلك التي لا يعلم عنها سواه ولم يطلع عليهـــا سوى نفسه التـــي كان يساورها بتلك الامور . . فهـــذه الاخرى قد طرح الثقة عنها . . وطفق يشك فيها . . ولا يطمئن اليها . . فهي عين متلصصة تترقب اعماله . .

اذن فمن حقه الان ان يخمد هذا الصوت باوطأ ما يستطيـــع وان يتلفت ليتأكد بان غيره لم يسمع هذه الاذاعة التي اعتاد سماعها بين حين وآخر من جهات يجهلهـــا تدعي انها في داخل العراق . . بل يعلم بانها لا تدوم اكثر من بضعة ايام حتى تتلقفها محطات التشويش

مبتلعة اصواتها . . فانصت الى الصوت المتـلاشي بشوق ولهفـة . . واستطاع ان يفهم من كلماته .. (ايها الشعب الابي الحر . . يا شعب العراق . . لقد تحقق الحلم الذي كنا ننتظره منـذ زمن بعيد على يد ابطال جيشنا الباسل الذي هدم رشاشاته صروح الظلم والطغيان . . ودك مدافعه معاقل الاثم والعـدوان . .) واصابته موجة فرح فاترة تمازجها الحيرة وهو يسأل نفسه يا إلهي من اين هذا الصوت ؟ ! أمن بغداد؟ ! لا ! لا يمكن ان يكون ذلك مطلقاً . . اذن من المحتمل ان يكون من الجمهورية العربية المتحـدة . . ؟ ! من الاقليم المصري ؟ او قد يكون من الاقليم السوري اما ان يكون من بغداد فهذا مستحيل وطفق يمسح اجفانه بقبضة يده جازماً بانه الان في يقظة وحقيقة وليس ما يسمعه حلم او خيال . . وبالرغـم من تأكيد المذيـع بانها اذاعة بغداد للجمهورية العراقية . . فانه لم يثق ولم تصدقه مسامعه او تعقل ذلك افكاره . . ؟ ! واصابه الذهول . . اذ ترك جهاز الراديو وهو لا يدري ما يفعله الآن وخرج الى الطريـق . . وحين بلغ الشارع القريب تساءل الى اين هو ذاهب ؟ ثم ادرك انه يريد رؤية القوات المسلحة للجيش وقد ملأت شوارع المدينة بدباباتها ومدرعاتها ولكنه لم يجد ما يدل على صحة ذلك . . فقد كانوا بضعة اشخاص يقطعون الشارع مسرعين في الذهاب الى اعمالهـم . . اذن فهذه اذاعة مزيفة وكل ما فيها ادعاء لا صحة له . .

وعندما اراد ان يعود ادراجه الى الدار طرق سمعه صوت يناديه وتلفت ليجد صديقه سامي يحادثه من النافذة المطلة على الشارع .

ـ عدنان . . عدنان . . ! هل سمعت بالخبر السعيد . . ؟ ! !

ـ ماهو ..؟!

ـ انقلاب ،، انقلاب عسكري ،، اطاح بالنظام الملكي الفاسد؟؟ الجماهير في بغداد تهاجم قصر الرحاب الى جانب الجيش !!

واراد ان يشير عليه بان يخفض صوته لئلا يسمعهم احد كما وده ان يسمع المزيد لكن صديقه استمر ..

ـ اسمع اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد ،، فقد سيطر عليها الجيش والشعب ..!!

وقاطعه بابتسامة فيها الفرح ويتخللها السرور ثم تركه واسرع الى الدار ليحتضن جهاز الراديو مطلقاً صوته اعلاه ،، فان ما سمعه حقيقة وليس حلم .

(هنا بغداد ،، محطة اذاعة الجمهورية العراقية ..!!)

وتلفت ليجد اخته قد تركت اعمالها وجلست الى جانبه مصغية واستطاع ان يعثر على قسمات وجهها بضعة اسئلة تريد ان تلقيها عليه إلا انها تخشى ان يفوتها شيء من البيانات الرسمية التي كان يسردها المذيع بصوته الاجش ،، وامتلأ قلبه غبطة وسروراً ،، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يصغي الى مقاطع تلك الاغنية الثورية التي كان يتوق الى سماعها منذ زمن بعيد ،، منذ كم اذناب الاستعمار اصوات العروبة عن مدينته ،، وبثوا محطات التشويش لتبتلع محطات اذاعة القاهرة ودمشق وصوت العرب وليتركوا محطة اسرائيل باكاذيبها ومحطة لندن بملفقاتها ومحطة باريس بمزيفاتها ،، وجلجل الصوت عالياً

(الله اكبر ،، الله اكبر ،، ياهذه الدنيا اطلي واسمعي ..)

ورفع رأسه على صوت اخيه الصغير الذي كان يصرخ فرحاً

(مظاهرة ،، والله العظيم ،، مظاهرة ..)

ووقفت والدته فاغرة الفاه كأنها لا تعلم بما حدث حتى الآن .. وصرخت باخيه الصغير تسكته ،، اما اخته فقد ابتسمت مستبشرة كأنها كانت تتوقع كل ذلك .

وتعلقت به والدته متوسلة تريد منه ان يبقى واقنعها بانه لن يشترك في المظاهرة ،، بل سيقف متفرجاً ومشجعاً ثم انتشل نفسه من يديها ، وراح يصفق لهذا الجماهير الزاحفة ويهتف معها بملىء قلبه ومن اعماقه (يسقط ،، يسقط ،،!! يعيش ،، يعيش !!)

ولم يبع إلا وهو في وسط الجموع المحتشدة يسير معها باقدام ثابتة وبخطوات متباطئة كأنها تحررت الآن من اصفادها التي انقلت سيرها ، ويصفق معها بأكف قوية كأنها انطلقت الآن من قيودها ويهتف من اعماقه هتافات عالية تعبر عن شعور مكبوت في صدور تحررت الآن من اغوار السجون .

وانطلق من فمه سيل دافق من كلمات وجمل وعبارات لا يذكر منها الآن شيئاً ، بل يذكر ان تلك الجماهير كانت تصغي اليه بصمت وسكوت وتقاطعه بالتصفيق الحاد والهتاف العالي لتنصت اليه كأنها تريد المزيد .

واخذ يتسلل من صفوف المتظاهرين عندما ادرك بانه لا يزال في رداء النوم ، وعاد ليجد والدته تنتظره بجزع وخوف ، وما كادت تراه ، حتى طوقته بذراعيها وعانقته بعينين اغرورقتا بالدموع فقال لها بصوت ابح .

ـ لا تجزعي ياامام ، فقد انتهى كل شيء .!!

وقاطعته بنبرة حادة يمازجها العطف والحنان وهي تجهش بالبكاء.

ـ كيف لا اجزع .؟ وصـورة تلك الليلة في العـام الماضي ، ما زالت ماثلة في مخيلتي .!!

وبالرغم من اطلاقه صوت الراديو اعلاه ، فانه لم يكن ليسمع شيئاً ، او يدرك ما يحيط به ، فقد كان رنين قطع الحديد ، واوصال القيود التي كانت تكبل معاصمه في تلك الليلة المشؤومة من العام الماضي والتي اعادت والدته صورها الآن في مخيلته قد أصمت اذانه ومسامعه، ونقلته بافكاره الى الغرفة الداكنة للعفنة ، التي زج فيها مع لفيف من اخوانه الاحرار في العام الماضي ، وظلت تلك الصـور تتوالى على مخيلته بالرغم من محاولاته الابتعاد عنها .

ولم ينتبه إلا على يد تهزه فتلفت ليجد اخته تقول له :

ـ عدنان ، اسمع ، اسمع المذيع .

واصغ اليه وهو يعلن مقتل اعداء الشعب وفي مقدمتهـم الخائن عبد الاله وقفز من مكانه يرقص ويصفق وهو يتلمس مواضع القيود في معاصمه التي لم يجد منها الآن سوى آثارها ..!!

قريباً يصدر

كتاب

خواطر قومية

للأستاذ عبد الغفار الصائغ

في طريق العودة

. . يس يم . . يس يم . . يس يم .

كانت اقدامه واقدام زملائه تشتد قوة في ضرباتها المتوالية فوق وجه الارض لتتاهب نبرات ذلك الصوت الذى بدأ يقترب من مسامعهم رويداً . . رويداً . يمزق الصمت والسكون . . وانطلقت قبضات ايديهم تتأرجح في الهواء بنسق ونظام لتوازن اجسامهم المندفعة نحو الامام بعزيمة ونشاط حاملين بنادقهم على اكتافهم تعانقها سواعدهم وتحتضنها اصابع ايديهم بقوة وثبات . .

والحيرا كاد الصوت ان يتلاشى ليترك صدى اقدامهم وحدها في لطماتها المتتابعة فوق وجه الارض مكونة بذلك لحناً عسكرياً . . منتظماً . . ولتثير في نفس (رياض) ذكريات وخواطر لن ينساها . فقد اودعها سراً كامناً لدى هذا الفجر الجديد الذي كان يستعرضهم وهو ما زال يتمطى متثائباً يحطم باقدامه استار الظلام مرسلا الاشعة الصفراء من وراء تلك الجبال الشامخة . .

ولم يلبث (رياض) ان وجد نفسه في ساحة (الرمي) وقد انقسم زملاؤه في الفصيل كل الى رهطه تملأ نفوسهم جميعاً الهمة والحيوية والنشاط . . منتبهين بعناية واهتمام الى اوامر ضابطهم وتعاليمه . . ثم انصرفوا يعدون بنادقهم وينظفونها . . الا هو فانه لا يدري اي شعور خبيث راح يساوره الآن فيشيع في نفسه الفزع والخوف. واحس بقشعريرة باردة تسري في اجزاء جسمه . . لا يستطيع ادراك مهمتها بالذات . . ؟ ! أهذا العتاد الحقيقي الذي يراه مكدساً امامه ؟ ! والذي سيستعمله لاول مرة ؟ ! ام هذه النسمات الرقيقة التي ابى الفجر في (سكرين) الا ان يداعبه بها . . وارتجف لصوت

للنار ينطلق من افواه بنادق زملائه في (الارسال الاول) وارتعدت فرائصه . . وشعر بالحمة تسري في اوصاله . . و كاد يبـكي . . الا انه اخفى بطي كمه الخاكي دمعـات ترقرقت بين اجفانه لئلا يراها زملاؤه فيستهزؤن به . . ثم سمع صوت الضابط ينادي بأسماء من جاء دورهم . . واحس باسمه بين تلك الأسماء فظـل جامـداً في مكانـه لا يتقدم وشعر بيد تدفعه من الوراء كانت لأحد زمـلائه ، . وعاد صوت الضابط يسأله :

ـ لم تأخرت يارياض ، تقدم .

واراد رياض ان يتراجع معلناً انه لن يمسك هذا العتاد بيده ولن يرمي مطلقاً . .؟! ولكن صوتاً آخر طرق اسماعه فجأة ، راح يتحسسه فقد كان صوت امه بتعاويذها وقراءاتها ، يزاحمه صراخ مرير لرضيع يعبث في بركة من دماء جسد امه المسجى امامه ، وصافحت اسماعه غصات اليمة ، وبكاء لطفلة لاجئـة في عمر الزهـور نصف عارية لا يغطي جسمها سوى الاسمال البالية تبحث عن عائلتها ، ورشقت اذنيه أنات كئيبة لشيـخ كبير ترتعش شفتاه ، وقـد طـرده اليهود الآثمون من داره مكبلا ، واخرجـوه من اوطانه العزيزة ، مربع ذكريات طفولته ، ومرتع احلام صباه ، ليشردوه في العراء بلسعه البرد ، وتكويه حرارة الشمس ، وكاد ذلك الصوت المزيـج يمـزق احشائه ، فاندفع نحو الامام ثم استلقى على وجهه في المكان المعد له ، وقد امسك بندقيته بعزيمة وثبات ، وبعد ان تناول تعيينه من العتـاد الحقيقي الذي به ملأ خزان بندقيته وطفق يهدف بدقة وامعـان ، ثم راح يضغط على زنادها بحكمة واتقان ليطلق من فوهتها سيلا من النار

التي رسمت امامه صوراً صادقة للجزء السليب من ارض العرب، وتمثلت في مخيلته ربوع فلسطين ، ضحية الغدر والخيانة يخرج منها المغتصبون اليهود ، وفي كل طلقة كان يلمح شبحاً لجسد يتمرجح راقصاً ثم يهوى ليكدسه فوق اشباح زمرته من تلك الفئـة المعتدية ولم يفق إلا على صوت يأمره .

ـ انهض ..

وصرخ رياض بقوة .

ـ لا ..؟! فاني اريد المزيد ..؟!

الا انه انتبه اخيراً فقد كان هذا الصوت لآمر فصيله، ولم يجد بداً إلا ان ينهض طائعاً يختضن بندقيته بفخر واعتزاز ثم عاد الى مكانه وللغبطة تملأ نفسه فقد اصبح الآن متأهباً ليوم الثأر ، مستعداً للجولة الثانية التي ستعيد للعرب ارضهم المغتصبة وحقوقهم المسلوبة .

وهنا في طريق العودة الي معسكر التدريب لطلاب المعاهد العالية في (سكرين) كانت ضربات اقدامه اكثر قوة من زملائه وقبضة يده ابعد مدى ، اما صوته فقد كان اشد حماساً وهـو يردد عالياً ،

بلاد العرب اوطاني من الشام لبغـدان

بأحدث الطرق

تعلم الضرب على آلة الطابعة

عربي وانكليزي في

معهـــد الامين

قرب بريد الاعظمية - بغداد

بادارة السيد طالب محمد العزاوي

جشع

قد لا يستطيع تحديد مصدر هذا الضجر الذي ما زال ينتابه منذ الامس ، فانه اذ يحس الآن وفي غمرة هذا الصخب بقلق يسيطر على افكاره ، وبفراغ يملأ نفسه المنطوية ويبعث فيها الملل واليأس ويثير في اعماقه اشياء غريبة لم يعتدها مطلقاً فما هـذه الضوضاء المنبعثة في ارجاء المقهى إلا لتطن في رأسه بقسوة ، وما تلك الطقطقات المتوالية سوى ضربات معاول تهوى على اذنيه لتنقر في مسامعه بقـوة وعنف دون رحمة او شفقة ، ثم هذا الجو الخانق المفعم بثعابين الدخان ليس الا لحبس انفاسه في صدره الضيق الذي تخلعت اضـلاعه ومادت في كانها ثم انحدرت تريد الالتصاق واخيراً لم يجـد بداً إلا ان يجمع تبه المبعثرة امامه على المنضدة والتي لم يستطع قراءة صفحة منها او هم شيء من كلماتها حتى هذه الرموز البسيطة (الا كس ! والواي!!) يعد يدرك وجودها فقد مضى عليه وقت طويل ، وانحـدرت من ره ساعات ثقيلة وهو في جلسته هذه صامتاً يعيـد ويراجع اسطر ك الصفحـة بالذات ويجتر كلماتهـا ، بل ما زال يمعن النظر في سور الملتوية لاحرفها التي لم يستطع ادراك معانيها او فهمها مطلقاً، لفق ينسـق كتبه وتناولها بيده رزمة ثم حمل معطفة على ذراعه ، سدد حسابه وهم بالانصراف ، وما كاد يفتح باب المقهى الزجاجي ستنشق بعض الهواء في الخارج حتى لفحت وجهه ريح باردة من ح الشتاء التي ارتعش لها وطفقت اسنانه تصطك بنغمات متسـقة عر بالحمة تسري في جسده وهو يتابع خطواته المتسمرة فوق بلاط صيف ويتدبر فراغ نفسه المبتئس والرعشـة السارية في اوصاله لق العابث في افكاره ، غير حافل بما يحيط به من كائنات فقـد

سار وهو لا يدري ، اذ يشق طريقه بجهد في هذه المنطقة من شارع الرشيد بالذات والتي كانت تموج بشتى صنوف البشر لا يعرف منها سوى نفسه وما تحمله من اعباء اثقلت كاهله وهو ما زال يجتر ذكريات القريبة ، اذ كان يستعرض كل شيء مر امامه اليوم ، فتلك رسالة والده التي استلمها هذا الصباح بعد انتظار مرير وغيبة طويلة دامت ما ينيف على الاسبوع وقد كانت مليئة باخبار كثيرة عن كافة افراد العائلة والاصدقاء في قريتهم ، اما عن النقود فلم يتطرق اليها بحرف واحد ، كأن والده يجهل نفاذها منذ مدة طويلة ، وكأنه لم يستلم رسالته الاخيرة التي اخبره فيها بانه قد استقرض مبلغاً من زميل له في الكلية ذلك المبلغ الذي لم يبق منه الآن في جيبه سوى بضعة دراهم قد لا تكفيه عشاء للغد ، وبالرغم من قراءته للرسالة للمرة الخامسة فانه لم يشم فيها رائحة خبر عن موعد ارسال النقود ، ثم (سعاد) زميلته هذه اذ يمر شبحها الآن امامه وقد لاح على قسماتها عتاب رقيق لم يلبث ان ذاب في صفحة وجهها لتحيله الى غضب شديد وثورة قاسية ، تركته على اثرها والدم يورد خديها ، وتذكر بانه كان قد ادار وجهه عنها كأنه لا يريد النظر اليها ولا يود الكلام معها ، عندما فاجأته في الصباح يقرأ رسالة والده منزوياً في ركن من اركان نادي الكلية ، وتلمس مواضع انامله التي تخللت شعره لتعبث به في رفق كعادتها وتحسس مواضع يدها الاخرى على كتفه وهي تهزه بهدوء لتشير انتباهه الى وجهها الاسمر الذي تزينه ابتسامة رقيقة او ربما لتذكره بتلك الاسطوانة المفضلة لديه وقد اختارتها ليسمعها الآن ، لم تلبث ان وقفت امامه في حيرة ينازعها القلق ، وقد

تلاشت ابتسامتها بين شفتيها المكتنزتين بفتور ، وتورد وجهها خجلا ازاء حالته المثيرة هذه ، اذ لم تعهدها لديه من قبل ، وراحت تسأله بالحاح عن حقيقة امره وظلت تحاول ادراك اسرارها وعلى خلاف عادته فانه لم يعرها اي اهتمام ، ولم يجبها بشيء بل ظل مطرقاً ، مسنداً رأسه الى راحة كفيه كأنه لا يدري بوجودها ولا يعيره اي اهتمام ، مما اقلقها واثار غضبها فتركته حانقة تمط شفتيها ، وبالرغم من كل ذلك فانه حاول ان يخبرها عن كل شيء فقد هم ان يخبرها عن رسالة والده واراد ان يعلمها عن نفاذ نقوده وقرر ان يصارحها بحبه وتفانيه من اجلها ، وعن شكه القاتل في حبها له ، بل وان يطلعها على حقيقة شعوره بالضجر والملل ، واليأس .

وتردد قبل ان يخبرها بكل ذلك إلا انه لم يفعل بل تركها تكمن له غضباً قاسياً . . فهو إذ كان حتى الآن يعلل نفسه بمجاملتها له . . وتقربها منه . . نتيجة حبها له . . إنما هو في الواقع يخادع نفسه ويكذب عليها . . فهي لو اطلعت على حقيقته وادركت وضع عائلته الفقيرة . . ترى هل ستستمر معه وتتطور علاقتها به . . ؟ ام ستتركه لتبذل محاولاتها مع غيره . . ؟!

وظل يسير على الرصيف وتلك الأفكار تتقاذفه والازدحام يدفعه . . ولا يدري الى اين سينتهي به هذا المطاف سرعان ما وجد نفسه في احضان هذا الدرب الضيق الذي لم تطرقه قدماه من قبل . . فقد شاهد عشرات غيره يحشرون فيه ليبتلعهم واستمر هو بين الزحام . . ليستطلع ما فيه ولا زال يتحسس بقية دراهمه المجتمعة في قبضة يده بين طيات جيبه . . واحس فجأة بيد قوية تمسك ذراعه . . فأدار رأسه

ليستطلع الخبر . . إذ وجد امرأة تتشبث به متوسلة لم تلبث ان انتشلت كتبه من يده المرتخية وسارت في طريقها امامه . . ثم وجدها تتلفت اليه ضاحكة بخبث لتقف امام باب بالقرب منها ووقف هو متسمراً في مكانه حائراً في امرها . . ترى ما لها وكتبه . ؟! ماذا تريد منها . . ؟ وتساءل اتود قراءتها وهو عاجز عن فهم لغتها . . ؟! وتردد كثيراً قبل ان يقترب منها وهي تناديه برأسها وباشارات من يديها . . فقد ساورته هواجس وافكار كانت تدفعه للاقتراب منها غاضباً يريد كتبه . . فاستجمع قواه وتقدم منها متردداً يتساءل بدهشة . . إلا انها جرته من يده الى داخل الدار . . ولا يدري بالذات ما كان هناك فان غرفة مظلمة مرطبة قريبة من الباب الخارجي كانت متأهبة لانتظارهم . . وجلس بعيداً عنها ليجدها تتعرى امامه . . ثم غاص معها يتمرغ فوق فراشها القذر ويعبث بيد مرتعشة في اشياء لم يلمسها من قبل . . وهو إذ يعلم الآن بأنه قد ترك دارها منذ لحظات وقد تبدد قلقه وزال اضطرابه سوى وخزات قاسية لألم مرير بدأ يحس به في اعماقه . . مع ضربات سياط الندم الموجعة التي راحت تلهب ظهره . . مما اثار الحقد والكره والاشمئزاز على غريزته الوحشية ونفسه الجشعة التي كانت تصول وتجول عابثة في اجزاء كتلة عارية من اللحم البشري استسلمت بين انيابها لقاء اربعة دراهم اقسمت له هذه بأنها ستدفعها ثمناً لغدائها وعشائها . .

وعاد ثانية الى الشارع ليدفع بخطواته المثقلة فوق الرصيف بين الزحام . . وهو يحمل بين جنباته ضميراً يؤنبه بقسوة . . ويحس بألم

مرير يعصر احشائه .. وبندم يدمغ رأسه . . وبحقد يمزق افكاره..
ومسح بمنديله دمعة ساخنة سالت من اجفانه منسابة فوق خـــده . .
ومد يده لتحسس درهماً ظل قابعاً في زاوية من جيبه ليشتري بجزء منه
صمونة يسد بها جشع معدته الخاوية . . ويملأ فراغها . .

الثمن

. . . وفي هذه اللحظة بالذات من كل مساء . . اذ كان يطيب له ان يجلس وحده منزوياً في ركن من اركان غرفته الصغيرة المتجهمة التي هي اشبه بالغرفة المتهدمة منها بالقبر . . لولا اجراء بعض الاصلاحات الطفيفة اخيراً على قسم من جدرانها وفتح نافذة صغيرة تطل على الطريق المجاور . . فهذه الغرفة بما فيها من اوراق ممزقة وكتب مبعثرة وزجاجات فارغة وسرير قديم عليه فراش بالي والى جانبه انتصبت منضدة تكدست عليها اكوام الكتب التي لا تعرف النسق او الترتيب في يوم من الايام . . فان جميع ذلك يكاد يكون كل ما في بيته المتواضع الذي لم يكن ليشمل سوى هذه الغرفة واخرى ان لم تشبهها بعض الشيء فهي اكثر اهمالا . . واقل اعتناء . . تلك التي لا تعدو أن تكون غرفة النوم لوالدته العجوز وغرفة الطعام والمطبخ في الوقت نفسه . . بل وحتى هي غرفة الاستقبال في بعض الاحيان لضيوف والدته . .

اجل ! فقد كان يحلو له ان يجلس في وهدة الليل يلفه الصمت العميق والسكون الهادي الذي لا يعبث بهما ولا يقلقهما سوى صوت الخفير بخطواته المتسقة في الطريق احياناً وتحيط به استار الظلمات التي يكاد يمزقها لهب مصباحه النفطي المترنح يغازل النسمات المختلسة من خلال شقوق النافذة . . فهو اذ يجلس بمفرده انما ليقلب صفحات كتاب او كتابين من الكتب الجديدة او التي يستعيرها لقاء اجر زهيد ويورقها . . وقد يتعدى ذلك احياناً الى مطالعة الجريدة اليومية التي يتركها له بعد مطالعتها زميله (قاسم) . . ثم يشعل بين الفينة والاخرى لفافة تبغ . . ويمد يده لترفع الكأس التي ملأها

قبل لحظات من القنينة للدا كنة وما ان يفرغها في جوفه الا ويمد يده تارة اخرى لتعب كأساً غيرها . . من تلك الزجاجة التي قلما يتركها تحتضن شيئاً من الخمر الى اليوم التالي . . ثم هذه الابتسامة التي لا تكاد تفارق شفتيه مردداً في سره هذه الحياة بما فيهـا أتستحق اكثر من سيكارة و كأس؟ ! سرعان ما يجيب هو نفسه بعد ان ينفث الدخان متصاعداً في فضاء الغرفة بقهقهة عالية تنتبه لها والدته . . إذ لم يلبث ان يسمع صوتها الهادي الحنون مختلسة النظرات من خلال ثقوب الباب لتسأله برفق وحذر . .

— حسن . . ؟ ماذا جرى يا حسن . . ؟ ! !

فيجيبها بفتور او قد يمازجه الزجر القاسي . .

— اذهبي . . الي غرفتك انت . . ؟ ! !

فتلوذ بالصمت لتعود بهدوء وجزع شديدين الى غرفتها بعـد ان كادت تطمئن بعض الشيء عليه . . ثم يعود هو الى لفافة التبغ متضرعاً بدخانها ليتابع ارتشاف انفاسها بنهم وشوق فتتموج امام مخيلتـه ثعابين الدخان المتصاعدة والتي تترك وراءها سلسلة متتابعة من الخواطر والذكريات يحاول طي صفحاتها وقبرها في زوايا النسيان إلا ان صفحة اتعابه وجهوده التي صرفها طيلة اعوام قضاها في الدراسة بين مرارة الحرمان وقسوة المدرسين وصعوبة المناهج إذ يحس الآن بمعاولها تطرق في رأسه بقسوة كأنها تريد تحطيم عظام جمجمته فيرتجف لهولها ويطبق اجفانه خائفاً مرتعشاً . . ثم تلوح امامه صورة شهادته للدراسـة الثانوية التي كم قاسى للحصول عليها واخيراً اصبح يمجها ولا يستسيغها . . وكم حاول تمزيقها وحرقها . . فمنذ عام او يزيد وهو يحملها ليطرق

بها ابواب الدوائر والشركات يريد بها وظيفة او عملا يسد باجرته رمق والدته التي كانت تلح عليه ان يبذل جهده وان يسعى ما وسعه ذلك للحصول على مكان في وظيفة مناسبة ينال من ورائها النقود واحياناً قد تشفع إلحاحها كما كانت تلحق كل صلاة من صلواتها الخمس بدعائها الخاص للحصول على الوظيفة المنتظرة له . . بل وكانت تأتي اليه في الصباح الباكر لتوقظه من نومه وتذكره بأن اليوم هو موعد مقابلته مع مدير شركة للنسيج فيرتدي احسن ملابسه حانقاً لانه يعلم تماماً حقيقة تلك الوعود التي اعتاد ان يتلقاها دائماً من اصحاب الاعمال ومدراء الشركات . . وحتى وعده لهذا اليوم إذ لا بد ان يمتد معه الى اسابيع اخر ليضيفها الى سابقاتها التي كادت تشكل عاماً كاملا في حسابه . . وقد كاد الملل ان يجد منفذاً الى اعماق نفسه اليائسة ولم يعد يثق بتلك الوعود بعد اليوم .. ولكن ما حيلته ازاء رغبة والدته والحاحها المتواصل للبحث عن العمل .

ويستمر في تخيلات واحلام طويلة .. قد تجره في مؤخرتها الى هذه الوظيفة التي استطاع الحصول عليها اخيراً .. ومنذ فترة من الزمن لا تتعدى الشهرين .. وقد استلم امس استحقاقه من الراتب الشهري هذه الكمية من الاوراق النقدية التي لم يكن ليثق بانها ستصبح ملكا له في يوم ما .. وبالرغم من توزيع بعضها على دائنيه فقد استطاع الاحتفاظ بقسم منها في جيبه .

والآن ليترك احاديث الماضي المرعبة ، ومشاكل توزيع الراتب ومتاعب الوظيفة ، وليطويها في زوايا النسيان ، فانه لا يود ان يذكرها لئلا تمر امام مخيلته صورة مديره وهو يصرخ في وجهه غاضباً مزبداً

لأنه لم ينجز معاملة من المعاملات المتراكمة منذ عهد الموظف السابق ، والتي يمكث من اجلها حتى المساء او حتى ساعات متأخرة منه في بعض الاحيان .

وتتمثل امامه ثانية صورة المدير بكرشه المكور ونظارته الحانقة من وراء نظارته المنحدرة فوق انفه الكبير ، ويحاول الابتعاد عنها لانه لا يود ان يذكرها الآن ولا ان يذكر حتى احترام زملائه الموظفين وحبهم له لانه لم يفسح مجالا امامهم للمزاح معه كما يفعلون فيما بينهم ، وهو اذ يخشى تماماً للسنتهم ، ويود ان يبتعد عن احاديثهم التي تتناول الغائب منهم نهشاً وتجريحاً ، وهو اذ يعتبرها مشاغبة قاسية لا يرغبها ولا يستسيغها مطلقاً ، إذن يريد الآن ان يطوي تلك الصور وان يلف هذه الصفحات وان ينساها ، وفجأة تصافح افكاره صورة المشروع الذي كان اليوم محور الحديث بين زملائه الموظفين في الدائرة ، ورغم انه لم يشترك معهم في الحديث والنقاش حول الموضوع ولم يدل بأي رأي عندما كانوا يتوجهون نحوه مستطلعين رأيه ، الا انه كان يلوذ بالصمت الذي جره الى افكار متشعبة لاحصر لها . . فهو يجزم الان بان التفكير في موضوع الزواج قد يحتاج الى مزيد من النظر ودقة في الامعان . . إلا انه كم يود تحقيقه مهما كلفه الثمن . . فقد ظل يفكر طيلة ساعات الدوام في الشريكة اللائقة التي قد تقاسمه آلام الحياة وتشاركه افراحها وعادت صور الصباح تمر امام مخيلته ثانية اذ طفق يستعرضها . . فكانت جميعها صور فتيات يعرفهن جيداً . . نتيجة القرابة او الجيرة . . وانتهى الى نتيجة حتمية ان جميعهن لا يناسبنه مطلقاً لاسباب مختلفة ومتباينة سوى هذه

الصورة التي استطاع ان ينتشلها الآن من افكاره . . بكل هدوء وروية . . فقد خطرت في باله اخيراً وظل يفكر في تقاسيمها فيرسم خطوطها ويضع الوانها . . وانجلت امامه صورة واضحة لسمراء فاتنة . . تبينها فاذا هي « وداد » هذه الفتاة جارته والتي عرفها منذ اعوام عندما جاءت اليه تريد ان يساعدها في انجاز بعض واجباتها المدرسية وكانت حينذاك طفلة صغيرة في المدرسة الابتدائية . .

اما الآن ، وبعد هذه الاعوام اذ يراها كل يوم وقد اكتنز جسمها وبرز نهداها ، وكم ساورته نفسه ان يكلمها ولو بتحية الصباح وما ان يحاور نفسه بها ويرددها في سره وعندما يقابلها على بعد امتار ليقذف في وجهها تلك العبارة المنسقة من تحيته إلا ويرتجف جسمه ويجف ريقه ويصيب لسانه البكم ، فتجمد الكلمات على شفتيه المرتعشتين ويتابع طريقه بخطوات متعثرة ، لابد اذن من مفاتحة هذه العجوز والدته ويطلب منها الذهاب الى اهلها لمفاتحتهم في امر خطوبته اذ سيعلن النبأ بين اصدقائه واقاربه .

وهنا تختمر الفكرة في رأسه ، وتتحقق الخطوة الاولى من مشروعه وقد كادت القنينة ان تلفظ آخر قسم منها فيجمع قواه ليطفيء لهب مصباحه النفطي الذي بان عليه الذبول ، من وراء سهره الطويل ثم يعود حسن الى فراشه ليندس بين احضانه عله يتابع سلسلة احلامه السعيدة .

وفي الصباح يهب مستيقظاً فيترك فراشه متوجهاً نحو الغرفة الثانية ، حيث اعتاد ان يجد والدته في انتظاره وقد اعدت الشاي ، الا انه كان يحس بان فكرة الامس لا زالت تداعب خواطره ، ويود الآن ان

يخبرها عن مشروعه علها هي الاخرى تشاركه الرأي في ذلك ، وما كاد يستقر في جلسته امامها منتظراً (استكان) الشاي متأهباً للحديث معها عن مشروعه حتى فاجأته هي :

— حسن ، نسيت ان اخبرك عن جارتنا وداد .

وهنا ينتبه حسن اليها فيرفع رأسه نحوها كمن احس بوخزة تلسعه واعتقد بانها هي الاخرى كانت تفكر بها في الامس وتعد المشروع نفسه ، او من يدري ربما جاءت وداد اليها تريد مساعدتها في شيء ، وظل ينتظر منها بقية الحديث متلهفاً بشوق وحرارة ما جعلها تستمر فيه بعد ان لزم هو جانب الصمت قليلا .

— فقد تقدم لخطبتها معلم..؟!

ويحدق في وجهها بدهشة كأنه يريد افتراسها ، فترتعش فرائصه وترتجف يده ، ويحاول تدارك استكان الشاي الذي كاد يهوى من يده فيعود ليسألها والاضطراب باد على قسماته

— ومن هو هذا المعلم .؟!

— لا اعلم ! الا انهم طلبوا منه مهراً قدره خمسمائة دينار ، فرفض طبعاً .

وهنا يعود اليه جأشه وتستقر نفسه بعض الشيء الا ان الصمت الثقيل الذي لازمه ، وشبح ذلك المبلغ الهائل الذي ارادوه ثمناً لأبنتهم كأنها (سلعة) ارادوا بيعها في سوق التجارة ، حتم عليه السكوت العميق ، فغابت افكاره بعيداً ، وطال صمته ، وهو يفكر ، اذ انه لو تقدم هو الآخر لخطبتها هل سيطلبون منه اقل من ذلك المبلغ ..؟ان لم يسألوه عن البيت الكبير الذي يملكه وعن سيارة (الكاديلاك !)

الراهبة امامه ..؟ ترى لو لم يسألوه عن ذلك من اين يأتيهم بمبلغ الخمسمائة دينار او حتى بجزء منه ، ومتى يستطيع جمعه ،؟!

لم يلبث ان للتهم فطوره بسرعة لا يعرف مداها ، دون ان يمضغ اية لقمة منها ، مبتلعاً معها حفنة من صور الدنانير ثم ارتدى سترته ليترك الدار مسرعاً نحو دائرته . . فيجلس وراء منضدته التي تراكمت عليها الاوراق والمعاملات . . ويود لو تحولت هذه الاوراق الى اوراق نقدية ليشتري بها وداد التي ما زال يحبها. ولا يدري هل ألقى على زملائه في الغرفة تحية الصباح المعتادة ام نساها ، إلا انه لمح في وجوههم بسمات عريضة عرف انها لنكتة طريفة كان قد قرأها احدهم في الجريدة اليومية فضحك لها الجميع الا هو نفسه فلم يضحك معهم بل ظل صامتاً يفكر بمشروع الزواج وثمن وداد يصافح افكاره .

الرسالة الممزقة

قد تبدو رسالتي هذه غريبة من نوعها فقد ترددت كثيراً قبل ان اكتبها اليك . . وانا الان في حيرة بالغة . . لا ادري ، كيف ابدأها وباية عبارة اخاطبك ؟ واي اسلوب يليق بهدوئك وصفاء نفسك ؟ بل ولا استطيع الان تحديد ما يجول في خواطري من احاسيس ومشاعر قد يخيب القلم في نقلها كاملة اليك على هذه الورقة الصغيرة. انما كانت رغبتي الاكيدة ان تعبر لك شفتاي عن جميع ذلك في جلسة نجتمع فيها انا وانت فقط . . لو لا هذه الظروف القاسية التي تحيط بمجتمعنا من عادات باليـة وتقاليد سخيفة لا زلنا نرسف في قيودها . . وكم تمنيت تحطيمها . . فاعترض طريقك في الصباح لابلغك تحيتي واعجابي مع هذه الرسالة . . الا ان العيون المترصدة احس بها ما زالت تراقبنا عن كثب نحن (الغرباء) في هذا المحيط الضيق . . لتحول دون تحقيق ما نتمنى . .

اجل عزيزتي ماجدة . . كنت اود ان اصارحك بنفسي لاقف على حقيقة رأيك في امر ترتكز عليه اسس سعادتي فمنذ مدة طويلة كنت خلالها احوم حولك متحرياً الاخبار عنك باحثاً عن كل ما يمت اليك بصلة من المعلومات التي استطيع الآن جمع شتاتها من اطراف ذاكرتي . . لارسم خطوطها واضح الوانها فتتمثل امامي صورة صادقة (لسمراء . .) فاتنة تخفي ابتسامتها عذوبة ورقة . . ويتجلى هدؤها واتزانها بشخصية تطغي على عارفيها . . وينم صفاء نفسها عن اخلاق عالية وفضائل سامية . .

فازاء ذلك كله عزيزتي . . ومن خلال تلك الملامح الساحرة بالذات كانت نفسي تتوق لاتخاذك شريكة لحياتي القلقة والتي اطوي

فيها ساعات الليل الطويل في سأم وملل تشاركني فيه الوحدة القاتلة . ولا احد من يستطيع تهديدها او ازالة قلقي منها او ابعاد سامي عنها غيرك . . فاني اذ اتقدم اليك راجياً بطلبي هذا . . وأملي ان يحظى قبولك ولا اشك في ان رسالتي هذه ستنال عطفك كما ستقدرين موقفي المتلهف وانتظاري المرير للجواب السريع الذي على ضوئه سأشيد اسس مستقبلي وبناء سعادتي واخيراً لا يسعني الا ان اقدم فائق احترامي مع باقة عطرة من التمنيات الصادقة راجياً لك حياة ملؤها السعادة والهناء . .

وهنا ترك القلم من يده ودفع اوراق الرسائل جانباً ثم اتكأ بمسند السرير كمن ازاح عن كاهله عبئاً ثقيلا . . وراح يحدق في فضاء الغرفة وينفث دخان سيكارته بنهم وشوق . . لم يلبث ان عاد الى الرسالة ليعيد قراءتها للمرة العاشرة . . متمعناً في جملها متريثاً عند كل كلمة فيها وما كاد يفرغ من تحويراته الاخيرة عليها وتبديلاته في بعض اجزائها . . حتى استقر رأيه على صيغتها النهائية التي راح يكتبها ثانية على ورقة غيرها وفي نهايتها تردد كثيراً يفكر في اختيار العبارة الاخيرة اللائقة التي يختتم بها الرسالة فلم يجد غير كلمة (شريك حياتك المخلص) وذيلها باسمه وتوقيعه . . ثم طوى جوانبها ليودعها في الظرف الازرق الجميل الذي اختاره لها وخط عليه عنوانها بدقة واتقان ثم تركها على المنضدة بجانبه وطفق يجمع قصاصات اوراق التسويد الممزقة والتي كان قد بعثرها في اطراف سريره اثناء انهماكه في كتابة الرسالة .. ونظر الى ساعته فقد كانت تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل مما راعه ذلك . . اذ انه لم يعتد البقاء حتى ذلك الوقت

المتأخر من الليل . . وجر نفسه محـاولا اطفاء المصباح ليندس بعد ذلك في احضان فراشه المكور وحاول ان ينـام الا ان صور ماجدة كانت تتوالى على مخيلته متتابعة فتسره وتبعث في نفسه الامل تارة . . او تقلقه وتثير في اعماقه الالم احياناً . . فمـن يدري ربما ستمزق رسالته وترمي اوصالها في سلة الاوساخ فـلا يعلم بها سواهما . . او قد تمط شفتيها مستهزئة به لتطـوي رسالته فتعرضهـا على زميلاتها المعلمات معهـا في المدرسة ممـا قد تثـير بينهـن موجة ضحـك وسخريـة . . فيشعـن احاديثـه في ارجـاء هـذه المنطقـة الصغـيرة ، وتتسرب اخباره الى اسماع اهاليها المشاغبين فتنتقل من افواههم الاخبار الملفقة والاشاعات الكاذبة والحكايات الخيالية كالعادة ، او من المحتمل ان تعيد اليه الرسالة مع عتاب قاسي وحفنة كلمات نابية . . ؟! لا . . لا . . لن يكون هذا ولا ذاك فانه اذ يجزم بانها هي الاخرى تفكر الآن بقلق واضطراب في طريقة لـكتابة رسالة اليه تعبر له فيها عن حب عميق يخالج نفسهـا ولتشكي اليه ما تقاسـيه من وحدة وحرمان ، او ربما لا زالت تعيش الآن في حلم سعيد معـه ، فاستيقظت هي ايضاً في هـذه الساعة المتأخرة لتجتر ذكرياتهـا ، ولتتذوق بقايا ذلك الحلم فهو لا يشـك في انهـا تحبه وإلا فما معنى نظراتها الطويلة اليه من خلال النافذة التي يلمحها فيها كلما مر من امام بيتها الذي تسكن فيه مع زميلاتها ، ثم التفاتاتها المتـوالية نحـوه كلما شاهدته في الطريق وابتساماته المشيقة ، انه اذن قد لا يعللها إلا بنظرات اعجاب والتفاتات اغراء ، وابتسامات حب .

وفي اليوم التالي . . احس الجميع بتغيير مفاجيء قد طرأ عليه لم

يستطع احد منهم تعليله او ادراك سره . . فقد كان وجهه يحمل ابتسامة عريضة ويده كانت في حركة دائبة ما تفتأ تحيي كل من يراه في طريقه من ابناء الناحية كبيراً كان ام صغيراً وعلى خلاف عادته . . وظلوا هم يتابعونه بنظرات حائرة تتبعها همسات خافتة كأنهم كانوا يحـاولون اكتناه سر تلك الافكار الدائرة في رأسه . . او حقيقة الآمال الـتي تشع في اغوار نفسه . . وكان في طريقه ليودع الرسالة صندوق البريد إذ رآه صديقه ناطق الموظف في الناحية . . وعلى وجهه ارتسـمت ابتسامة لم يعهدها مطلقـاً وراح يصافحه بحرارة وشوق . . وتساءل هو في سره ترى ماذا في الامر . . ؟ ! ألديـه هو الآخر مشـاريـع جديدة . . ؟ ام انه ادرك سر الرسالة . . لم يلبث ان وجد ناطق يشير اليه بيده اليمنى ملوحاً بأنامله امام انظاره . . وما كـاد يلـمح خاتم الخطوبة حتى تناول يده ثانية وراح يهزها بقوة ليعانقـه فرحـاً ثم استطرد يسأله . .

— ومن هي صاحبة الحظ . . ؟

واراد ان يتابـع شيئـاً آخر كأن يخبره عن مشروعه هو الآخر إلا ان صديقه ناطق قاطعه . .

— انها جميلة جداً . . ؟ ! وتعرفها جيداً . . تلك السمراء الـتي كنا نتحدث عنها كثيراً . . وكنت تصفها لي بمثال الاخلاق . .

— ومن هي . . ؟ ! لا اذكر . . ! !

— السيت ماجدة . .

— ماجده . . ؟ ! ما . .

وتلاشت مقاطع الحروف في فمه وفتر عناقه وتراخت يده ولاحت على وجهه بوادر الدهشة والاضطراب مما اثار انتباه صديقه فراح يسأله بالحاح ..

- ماذا في الامر ..؟!

- لا شيء مطلقاً ، انما ارجو لكما السعادة والهناء .

وسادت فترة صمت طويلة بينهما ، لم يلبث هو ان ترك صديقه ناطق تتقاذفه الحيرة وتصطدم به اشياء لتعبث بسعادته يريدادرا كها وتايه طريقه بخطوات مثقلة وفي اعماقه يقبع سر كامن ، لا يدري لمن يبوح به ، وفي جيبه رسالة زرقاء تتلمسها انامله بين حين وآخر لا يدري لمن يودعها .

وحتى هؤلاء التلاميذ الصغار في غرفة الصف فقد كان الصمت يخيم فيهم والهدوء يسيطر عليهم وعلى خلاف عادتهم فلا نأمة ولا حركة ولاضوضاء.. وكأنهم كانوا في تلك اللحظة بالذات يشيعون جنازة ، او جالسين في مأتم وهم ينظرون بعيون ملؤها الشفقة والألم الى معلمهم الذي كان يذرع بلاط الصف جيئة وذهاباً تعلو قسمات وجهه تعابير الاسى والحزن العميق ، وتعصر احشائه آلام مريرة ، وشاهدوه وهو يطيل النظر في رسالة زرقاء اخرجها من جيب سرواله ثم راح يمزقها ويرمي اجزاءها بعنف وقوة ، الى سلة الاوساخ محدقا فيها بنظرات دامعة .

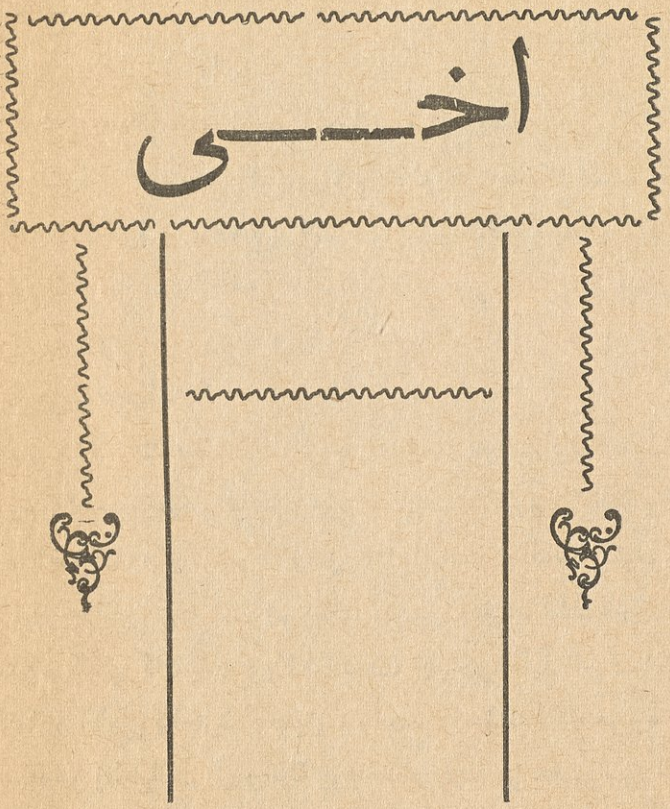
أخـــى

جميعهم يقولون عنها . . عملية بسيطة وانا اجزم ذلـك . . سوى امي وحدها التي لا زالت تبـكي . . ومن حقها ان تبـكي . . فانها الآن تحت رحمة الاقدار تعبث في احشائه سكاكين الاطباء والاتهم الجارحة . . ولن يستقر لها بال ما لم اخـبرها واقسم لها بانه في صحة تامة وقد لا تصدقني بالرغم من ذلـك . . ما لم تشهده بعينيها وتتكلم معه وعندئذ ستقول عنها عملية بسيطة . .

لا بأس من ذلك كله . . فانا الآن امام هذه الصالة منتظراً بابها الذي ابتلع اخي (مثنى) محمـلا على عربة مـع حفنة من الاطبـاء والممرضات والخدم . . ولم اعد استطيـع رؤيتهـم حتى من خلال الزجاج . . ولا اي فرد منهم ؟ ترى اين ذهبوا باخي . . ؟ ! وماذا يريدون منه ؟ اود ان اراه ثانية . . وتسائلت ماذا لو اعتبروني خادماً وادخلوني معهم . . فقد قرأت ولا شك بعض الشيء عن الطب وعن العمليات الجراحية في المدرسة وفي الكلية . . واريد الآن الدخول . علني استطيـع معاونتهم . . لا . . بل لانظر فقط الى ايديهم ولأبارك فيها لئلا تزل او تخطيء فتؤدي بحياة اخي . . اذن استطيـع الدخول فسأدفع هذا الباب وألجه بطمأنينـة وهدوء و كدت افعل ذلك لولا هذه النظرات القاسية التي المحها تحدق في وجهي بحنق وغضب من فوق هذه اللوحة الكبيرة المعلقة بجانب الباب كانها تصرخ بي قف ! ووقفت بجزع لاتبين تلك الحروف الملطخة بلون قاتم . . « ممنوع الدخول » فتراجعت قليلا و كاد ظهري يصطدم بالجدار وبقيت واقفاً بصمت وخجل كتمثال حجري . . لا ادري بما يحيطـني من كائنات سوى اشباح تمر مسرعة في رواحها ومجيئها . . لا اريد النظر اليها ولا اود

معرفة شخصيتها . . ثم هذا الباب الموصد في وجهي والذي كنت اختلس النظرات من وراء زجاجه الى الصالة المعتمة علني استطيع رؤية ما يجري وراءه لاخي مثنى ونظرت الى ساعتي التي كان عقرب دقائقها قد تحرك واجتاز رقمين ليعانق الرقم الثالث منذ اغلاق هذا الباب . . انها حقبة من الزمن احس الآن بطولها . . وبكآبة الجو الذي حملتني خلالها اليه . . وما اتت به الي من افكار وخواطر مزعجة كنت احاول الفرار منها . واريد التخلص من منغصاتها . فتحركت من مكاني قليلا علني استطيع تناسي هذه الهواجس التي تساورني وكاد ان يكون ذلك لولا صورة امي بدمعها الساخن ونشيجها المؤلم التي ما زالت ماثلة امامي وهي تضم اخي بين احضانها بقوة لتودعه بقبلاتها الحارة . . كانها تودعه للوداع الاخير . . ثم صورته هو بالذات ونتيجة عمليته تتبعها علامات الاستفهام التي ما زالت عالقة في ذهني . وهنا اجد نفسي امام شاب كان هو الاخر ينظر من خلال الزجاج الى صالة العمليات كما كنت افعل انا بالذات منذ لحظات وعندما اقتربت منه بادرته . .

ـ أتستطيع رؤية شيء . .

هز رأسه كأنه يقول لي لا شيء هناك . . ثم لمحت دمعات ساخنة تترقرق بين اجفانه فاستطردت متابعاً . .

ـ ان اخي (مثنى) بين ايديهم هنا . . وهو مصاب بالتهاب في الزائدة الدودية . .

فاجابني المسكين بهدوء وبلهجة متكسرة . . كأنه عرفني وعرف اخي مثنى . .

اتمنى له السلامة والشفاء . . اما انا فوالدي ايضاً . . ولا زلت منتظراً نتيجته منذ اكثر من ساعـة . . وصمت فجـأة لرؤيته شبحاً يقترب من داخل الصالة التي فتـح بابهـا ليطل من ورائه وجه هذا الخادم الذي انتظر منه صاحـبي ان يخبره عن والده . . وتطلعت اليه ليخبرني عن اخي . . ولكن تعابير الاسى والكآبة التي لاحت على قسمات وجهه جعلتني اتمثل صورة اخي وقد انتهى امره بين ايديهم وإلا ما بال هذا الصعلوك لم ينظر الي ولم يخـبرني بشيء . . واردت اللحاق به لأسأله . . ولأتوسل اليـه . . الا ان ردهـة من ردهات المستشفى كانت اسبق مني لاحتضانه وعـدت ثانية الى مكاني مترقباً الزجاج علني المح شبحاً آخر يخبرني عن اخي . .

وافقه لاحد الباب ينفتح ثم يخرج منه شخص لم اجد في قسمات وجهه ما يدل على التفاؤل . . وعرفتـه الطبيب المسؤول الذي ما ان رآني متلهفاً منتظراً النتيجة منه بفارغ الصـبر حتى توجه نحوي وهمس في اذني بصوت تكاد تخنقه العبرات . .

— الهفية في عمرك يا اخي . . فكلنا في هذا الطريق . .

وهنا صرخت . .

— مات . . ؟ مات اذن . . ؟ ! !

وشعرت بممر المستشفى الطويل يضغط على صدري ويشـد على انفاسي . . وتثاقل رأسي . . ودارت الارض بي مسرعة وتلاشى كل شيء من امامي فأطبقت اجفاني واسندت ظهري الى الجـدار الذي كان هو الآخر لا يستطيع الاستقرار . . ثم تحركت اريـد الدخول الى الصالة لاحطم كل ما فيها . . ولاحمل منها نعش اخي . .

إلا ان الطبيب وقف امامي مهدئاً راجياً مني التريث فسيأتون به واحسست كأني اصرخ في وجهه وانا اعود الى الجدار ثانية مستنداً اليه . .

واسرعت نحو العربة التي كان يدفعها احد الخدم خارجاً بها من الصالة لاكشف الغطاء عن نعش اخي ، لم البث ان سمعت صاحبي المسكين الذي كان الى جانبي ينظر الى العربة يطلق صرخة داوية .

ـ انه ابي ، مات ؟!! ، آه . .

وراح يركض وراء العربة يبكي ويولول بكلمات لم افهمها حتى ابتلعه الممر ليقبر اصداء صرخاته ، التي ما زالت تتهاوى في اسماعي متلاشية ، وبدأت قطرات من الدمع تنساب من بين اجفاني ، لم استطع ايقافها .

وبعد برهة عاد الطبيب ثانية يحمل فوق شفتيه بسمة امل وبشر

ـ اهنئك ، فان اخاك في صحة تامة الآن ، لم افهم كلماته ولم استطع ادراك ما كان يعنيه بالذات ، فاقتربت منه متشبثاً بردائه اسأله بالحاح . .

ـ بالله عليك يادكتور ، ماذا حدث له اخبرني . .؟!

ـ ياأخي اقسم لك بان عمليته قد نجحت والحمد لله .

لم البث ان وجدت نفسي وقد تركت الطبيب يبتسم لألحق بهذه العربة التي كان يدفعها عشرات من الخدم وانحنيت على وجهه لاتحقق منه ولأطبع على شفتيه قبلة بللتها الدموع إلا ان رائحة المخدر حالت دون تحقيق ذلك ، وتركني جميع الخدم وحيداً في الغرفة الى جانب اخي الراقد في سريره وقد اكتنفته غيبوبة لا اعرف مداها . .؟!

وطفقت انظر اليه واتحسس انفاسه لاطمئن على سلامته ، واتلمس وجهه المتصبب عرقاً ، للذي لم يلبث ان فتح اجفانه المطبقة عن ابتسامة هادئة وتململ قليلا ورأيت شفاهه تلح بي لارواء ظمأها فقربت فمي لاطبع عليها تلك القبلة التي تمنيتها قبل سويعة ناسياً رائحة الخدر .

إلا انني تراجعت هذه المرة ازاء صوت بدأ يرن في اذني صاخباً يحمل نغما جنائزياً وصراخاً مؤلماً وترقرقت دمعة حائرة بين اجفاني اخفيتها بمنديلي لئلا يراها اخي ، ولا ادري حتى الآن أهي دمعة للفرح لنجاح عمليته ام دمعة الاسى والألم على اخي الآخر الذي توفي ولده ..؟!

محتويات الكتاب

اريد ان آكل

الدم ومعركة المصير

مدينتي تودع الرجال

مات مع الفجر

رقصة الاشباح

آثار القيود

في طريق العودة

جشع

الثمن

الرسالة الممزقة

اخي

كلمة لا بد منها

لقد قام بوضع تصميم للغلاف الفنان الاستاذ يوسف ذنون المدرس في معهد المعلمين في الموصل مما استوجب شكر المؤلف وتقديره على مساهمته في اخراج هذا الكتاب .

المؤلف

- عبدالحميد عبدالمجيد التحافي .
- ولد في الموصل سنة ١٩٣٣ .
- انهى دراسته الاعدادية في سنة ٩٥١ .
- اجتاز مرحلة الدراسة العالية في كلية الاداب والعلوم الا ان ظروف خاصة حالت دون مواصلته للدراسة الجامعية .
- تنقل في عدة وظائف حكومية بين بغداد والموصل آخرها بوظيفة في مديرية ضريبة عقار الموصل .
- عضو في جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين في بغداد .
- لديه مجموعة اقاصيص معدة للطبع عنوانها (كؤوس الفجر) ورواية (دماء في الطريق) .

طبع في مطبعة ام الربيعين
بالموصل

الثمن ١٣٠ فلساً

LOOK FOR BARCODE

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU90372921